المنتقى من كتاب " مدارج السالكين " للعلامة ابن القيم

جمع

فهد بن عبدالعزيز بن عبدالله الشويرخ

حقوق الطبع والنشر لكل مسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين...أما بعد:

فمن العلماء الأفذاذ الذين كان لهم إبداع في بيان المنهج الصحيح لتزكية النفوس: العلامة ابن القيم رحمه الله، في العديد من مصنفاته، من أبرزها في هذا الجانب: كتابه " مدارج السالكين في منازل السائرين " الذي شرح فيه كتاب " منازل السائرين " للإمام أبي إسماعيل الهروري رحمه الله، وقد أثنى على كتاب العلامة ابن القيم الكثير من أهل العلم:

& قال ابن رجب والعليمي ومحمد كمال جعفر : جليل القدر

& قال الأهدل : أتى...بما أشفى الغليل وأروى العليل، جزاه الله خيراً.

& قال صالح عبدالعزيز آل الشيخ : خلص..رحمه الله فيه كلام السلف من أدران كلام المتصوفة، وجعله كلاماً متسقاً، كلاماً عظيماً، كلاماً جميلاً، فيه إصلاح عبوديات القلب

& قال منصور محمد الصقعوب : كتاب نافع...لا يستغني عنه طالب علم.

& قال عبدالعزيز ناصر الجليل : موسوعة علمية ضخمة، وشرح عظيم، وميسر، لكتاب منازل السائرين للهروي، يغلب على شرحه الأسلوب السهل،..ومخاطبة العقل والقلب معاً.

& قال محمد حامد الفقي من خير ما كتبه، وحسبك بابن القيم في تهذيب النفوس، والأخلاق، والتأدب بآداب المتقين الصادقين.

-(٣)

& قال خالد عبدالرحمن الكعك : من خيرة مؤلفاته.

& قال محمد سليمان العليط : كان الشيخ عبدالله محمد بن حميد رحمه الله يقول : أعظم كتب ابن القيم مدارج السالكين وطريق الهجرتين.

& قال عبدالوهاب عبدالجبار الدهلوي :كتبه..أنفعها عندي، وأحسنها: مدارج السالكين

& قال عبد المنعم بن صالح العزي ومصطفى شيخ مصطفى : غزير المنفعة، بليغ العبارة، وفيه من دقة استخراج المعاني الإيمانية، ولطف الإشارات القلبية ما ليس في غيره.

& قال ناصر سليمان السعوي وعلي عبدالرحمن القرعاوي وصالح عبدالعزيز التويجري وخالد عبدالعزيز الغنيم ومحمد عبدالله الخضيري : سفر عظيم غزير الفائدة..امتاز بحسن عرضه،..وجودة تبويبه، وتقسيمه، وتأصيله للمسائل،..من أهم كتب أهل السنة ،التي تمثل مناقشة الصوفية والرد عليهم.

& قال محمد صالح العثيمين : سورة الفاتحة...لا أحسن من الشرح الذي شرحه إيّاها ابن القيم رحمه الله في أول مدارج السالكين، فإنه قد أتى من معانيها بالعجب العجاب، الذي لا تجده في أي كتاب،...تكلم عليها كلاماً طويلاً، وبيَّن فيها من الأسرار والحكم ما لا تجده في أيِّ كتاب تفسير.

& قال بشير محمد عيون : بلغ في مؤلفه هذا ذروة الإبداع، في الصفا والنقاء، والتأمل والتفكير، حتى ليعد هذا الكتاب من أنفس كتبه، وأغزرها علماً، وفكراً، وأقواها أثراً وتأثيراً.

-(٤)

والكتاب يبحث في طريق السلوك إلى الله، ومنازل العبد التي يسير فيها في الطريق إليه، والكلام على أعمال القلوب، فهو مهم في موضوعه، لكنه كبير الحجم جداّ [عدد صفحاته حسب الطبعة الأولى لمجمع الفقه الإسلامي: ألفان وتسعمائة صفحة] ولذا فقد انتقيت مباحث من أغلب المنازل التي شرحها العلامة ابن القيم من كلام الإمام الهروي رحمهما الله.

علماً أن العلامة ابن القيم رحمه الله علّق أثناء شرحه للكتاب على ما يوجد في الكتاب من أخطاء، وبيّن ما فيه من تجاوزات، فأجزل الله له الأجر والثواب.

هذا وأسأل الله الكريم أن ينفع بما انتقيتُ، ويبارك فيه.

ـ(٥)

خطبة الكتاب

القرآن الكريم حياة القلوب، ولذة النفوس، وحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح:

قال رحمه الله: كلما ازدادت البصائر فيه تأمُّلاً وتفكيراً زادها هداية وبصيرة، وكلما بحست معينه فجَّر لها ينابيع الحكمة تفجيراً، فهو نور البصائر من عماها، وشفاء الصدور من أدوائها وجواها، وحياة القلوب، ولذة النفوس، ورياض القلوب، وحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، والمنادي بالمساء والصباح: يا أهل الفلاح حيَّ على الفلاح.

وكان حقيقاً بالإنسان أن ينفق ساعات عمره بل أنفاسه فيما ينال به المطالب العالية ويخلص به من الخسران المبين وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن وتفهمه وتدبَّره واستخراج كنوزه وإثارة دفائنه وصرف العناية إليه والعكوف بالهمة عليه فإنه الكفيل بمصالح العباد في المعاش والمعاد، والموصل لهم إلى سبيل الرشاد

الرقية والاستشفاء بفاتحة الكتاب نافعة إذا كان بقوة إيمان وصحة يقين

قال رحمه الله: قد جربتُ أنا من ذلك في نفسي وفي غيري أموراً عجيبةً، ولا سيما مدّة المقام بمكة أعزَّها الله تعالى، فإنه كان يعرض لي آلام مزعجة، بحيث تكاد تقطع الحركة منِّي، وذلك في أثناء الطواف وغيره، فأبادر إلى قراءة الفاتحة، وأمسح بها محلَّ الألم، فكأنه حصاة تسقط، جربتُ ذلك مراراً عديدة، وكنت آخذ قدحاً من ماء زمزم فأقرأ عليه الفاتحة مراراً وأشربه، فأجد به من النفع والقوة ما لم أعهد مثله في الدواء، والأمرُ أعظم من ذلك، ولكن بحسب قوّة الإيمان وصحة اليقين.

(٦)-

من هُدِي في الدنيا إلى صراط الله المستقيم هُدِى في الآخرة إليه، وعلى قدر سيره على هذه الصراط يكون سيره على الصراط المنصوب على متن جهنم.

قال رحمه الله: من هُدِي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم، الذي أرسل به رسوله، وأنزل به كتابه، هُدِى هناك إلى صراط الله المستقيم المُوصل إلى جنته ودار ثوبه، وعلى قدر ثبوت قدمه على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار، يكون ثبات قدمه على الصراط المستقيم على متن جهنم، وعلى قدر سيره على هذا الصراط يكون سيره على ذاك الصراط، فمنهم من يمرُّ كالبرق، ومنهم من يمرُّ كالطرف، ومنهم من يمرُّ كشدِّ الركاب، ومنهم من يسعى سعياً، ومنهم من يمرُّ مشياً، ومنهم من يحبو حبواً، ومنهم المخدوش المسلَّم، ومنهم المكردس في النار، فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا، حذو القُذَّة بالقُذَّة جزاءً وفاقاً ﴿ هل تُجزون إلا ما كنتم ما تعملون ﴾ [النمل: ٩٠]

ولينظر الشهوات والشبهات التي تعوقه عن سيره على هذه الصراط المستقيم، فإنها الكلاليب التي بجنبتي ذاك الصراط، تخطفه، وتعُوقه عن المرور عليه، إن كثرت هنا وقويت، فكذلك هي هناك، ﴿ وما ربك بظلم للعبيد ﴾ [فصلت:٤٦]

(٧)-

رفيق العبد في سلوكه الصراط المستقيم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسُن أُولئك رفيقا.

قال رحمه الله: لما كان طالبُ الصراط المستقيم طالب أمرٍ أكثرُ الناس ناكبون عنه، مريد لسلوك طريق مُرافقُه فيها في غاية العزة، والنفوسُ مجبولة على وحشة التفرُّد وعلى الأنس بالرفيق نبه الله سبحانه على الرفيق في هذه الطريق، وأنهم هم الذين : ﴿ الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسُن أُولئك رفيقاً ﴾ [النساء:٦٩] فأضاف الصراط إلى الرفيق السالكين له، وهم الذين أنعم الله عليهم، ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه، وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط هم الذين أنعم الله عليهم، فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له، فإنهم هم الأقلون قدراً، وإن كانوا الأكثرين عدداً، كما قال بعض السلف: " عليك بطريق الحق، ولا تستوحش لقلة السالكين، وإياك وطريق الباطل، ولا تغتر بكثرة الهالكين" وكلما استوحشت في تفردك فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على اللحاق بهم، وغُضَّ الطرف عمن سواهم فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً، وإذا صاحوا بك في طريق سيرك فلا تلفت إليهم، فإنك متى التفت إليهم أخذوك أو عاقوك.

(٨)-

منزلة اليقظة

قال رحمه الله: أول منازل العبودية: اليقظة. وهي انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين. والله ما أنفع هذه الروعة ! وما أعظم قدرها وخطرها! وما أشدَّ إعانتها على السلوك! فمن أحسَّ بها فقد أحسَّ والله بالفلاح، وإلا فهو في سكرات الغفلة، فإذا انتبه شمر لله بهمته إلى السفر إلى منازله الأولى وأوطانه التي سُبي منها..

فحيَّ على جنات عدن فإنها منازلك الأولى وفيها المخيم

ولكننا سبي العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونُسلَّمُ

نظر العبد إلى ما سلف منه من الإساءة وتشميره في التخلص من جنايته:

قال رحمه الله: ينظر إلى ما سلف منه من الإساءة، ويعلم أنه على خطر عظيم فيها، مشرف على الهلاك...فإذا طالع جنايته شمَّر لاستدراك الفارط بالعلم والعمل، وتخلص من رق الجناية بالاستغفار والندم، وطلب التمحيص، وهو تخليص إيمانه ومعرفته من خبث الجناية، كتمحيص الذهب والفضة، وهو تخليصهما من خبثهما.

ولا يمكن دخول الجنة إلا بعد هذا التمحيص فإنها لا يدخلها إلا طيب، ولهذا تقول الملائكة﴿سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾ [النحل:٣٢] فليس في الجنة ذرّة خبثٍ

وهذا التمحيص يكون في دار الدنيا بأربعة أشياء: بالتوبة، والاستغفار، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، فإن محصته هذه الأربعة وخلصته كان من ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ﴾ يبشرونهم بالجنة، وكان من الذين تتنزل عليهم الملائكة عند الموت ﴿ ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون * نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا والآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون * نُزلاً من غفور رحيم ﴾ [فصلت:٣٠-٣٢]

-(٩)

وإن لم تفِ هذه الأربعةُ بتمحيصه وتخليصه، فلم تكن التوبة نصوحاً – وهي العامة الشاملة الصادقة – ولم يكن الاستغفار كاملاً تاماً – وهو المصحوب بمفارقة الذنب والندم عليه، هذا هو الاستغفار النافع، لا استغفار من في يده قدح المسكر، وهو يقول: أستغفر الله، ثم يرفعه إلى فيه – ولم تكن الحسنات في كميتها وكيفيتها وافية بالتكفير ولا المصائب، وهذا إما لعظم الجناية، وإما لضعف الممحص، وإما لهما، مُحّص في البرزخ بثلاثة أشياء:

أحدها: صلاة أهل الإيمان عليه، واستغفارهم له، وشفاعتهم فيه.

الثاني: تمحيصه بفتنة القبر وروعة الفتان والعصرة والانتهار، وتوابع ذلك.

الثالث: ما يُهدي إليه إخوانه المسلمون من هدايا الأعمال، من الصدقة عنه، والحج عنه، والصيام عنه، وقراءة القرآن، والصلاة، وجعل ثواب ذلك له، وقد أجمع الناس على وصول الصدقة والدعاء، قال الإمام أحمد رحمةُ الله عليه: لا يختلفون في ذلك، وما عداهما فيه اختلاف، والأكثرون يقولون بوصول الحج.

فإن لم تف هذه الثلاثة بالتمحيص، مُحّصَ في الموقف بثلاثة أشياء:

أهوال القيامة، وشدة الموقف.

وشفاعة الشفعاء.

وعفو الله.

فإن لم تف هذه الثلاثة بتمحيصه، فلا بدّ له من دخول الكير رحمةً في حقه، ليتخلص ويتمحص ويتطهر في النار، فتكون النار طهرةً له وتمحيصاً لخبثه، ويكون مكثه فيها على حسب الخبث وقلته، وشدته وضعفه، فإذا خرج خبثه أُخرج من النار، وأدخل الجنة.

-(١٠)

مشاهدة العبد لنعمة الله عليه بالإسلام والإيمان والتنعُّم بذكره وطاعته:

قال رحمه الله: النور الذي أوجب اليقظة، فاستنار القلب به...على حسبه قوةً وضعفاً تصفو له مشاهدة النعمة، فإن من لم ير نعمةَ الله عليه إلا في مأكله وملبسه وعافية بدنه وقيام وجهه بين الناس، فليس له نصيب من هذا النور البتة، فنعمةُ الله بالإسلام والإيمان وجذب عبده إلى الإقبال عليه، والتنعُّم بذكره، والتلذذ بطاعته هو أعظم النِّعم، وهذا إنما يُدرك بنور العقل وهداية التوفيق.

والنظر إلى أهل البلاء، وهم أهل الغفلة عن الله والابتداع في دين الله، فهذان الصفان هم أهل البلاء حقاً، فإذا رآهم وعلِمَ ما هم عليه عظمَت نعمةُ الله عليه في قلبه، وصفت له، وعرف قدرها، فالضد يُظهرُ حسنه الضِّدُّ.

ومن عرف قدر نفسه وحقيقتها وفقرها الذاتي إلى مولاها الحقّ في كلِّ لحظةٍ ونفسٍ، وشدة حاجتها إليه، عظمت عنده جنايةُ المخالفة لمن هو شديد الضرورة إليه في كلِّ لحظةٍ ونفسٍ. وأيضاً فإذا عرف حقارتها مع عِظَمِ قدرِ من خالفه عظُمت الجنايةُ عنده، فشمرَّ في التخلُّص منها.

ما يعين العبد على معرفة حاله وإيمانه زيادةً ونقصاً:

قال رحمه الله: السالك على حسب علمه بمراتب الأعمال ونفائس الكسب، تكون معرفته بالزيادة والنقص في حاله وإيمانه.

وكذلك تفقد إجابة داعي تعظيم حرمات الله من قلبه: هل هو سريع الإجابة لها، أم بطيء عنها ؟ فبحسب إجابته الداعي سرعةً وإبطاءً تكون زيادته ونقصانه.

وكذلك صحبةُ أرباب العزائم المشمِّرين إلى اللحاق بالملأ الأعلى يعرف به ما معه من الزيادة والنقصان.

-(١١)

والذي يملك به ذلك كله خروجه عن العادات والمألوفات وتوطين النفس على مفارقتها، والغربةُ بين أهل الغفلة والإعراض وما على العبد أضرُّ من ملك العادات له، وما عارض الكفار الرُّسل إلا بالعادات المستمرة المورثة لهم عن الأسلاف فمن لم يوطن نفسه على مفارقتها والخروج عنها والاستعداد للمطلوب منه فهو مقطوع، وعن فلاحه..ممنوع.

-(١٢)

منزلة الفكرة

قال رحمه الله: فإذا استيقظ أوجبت له اليقظة " الفكرة" وهي تحديق الفكر نحو المطلوب الذي قد استعد له مجملاً، ولما يهتد إلى تفصيله وطريق الوصول إليه.

كل من أعرض عن شيء من الحقِّ وقع في باطل مقابل ما أعرض عنه:

قال رحمه الله: كل من أعرض عن شيء من الحقِّ وجحده وقع في باطل مقابل ما أعرض عنه من الحق وجحده، ولا بد، حتى في الأعمال، من رغب عن العمل لوجه الله وحده ابتلاه الله بالعمل لوجوه الخلق، فرغب عن العمل لمن ضرُّه ونفعُه وموتُه وحياتُه ونشورُه وسعادتُه بيده، فابتلي بالعمل لمن لا يملك له شيئاً من ذلك.

وكذلك من رغب عن إنفاق ماله لله وفي طاعته، ابتُلي بإنفاقه لغير الله وهو راغم، وكذلك من رغب عن التعب لله ابتُلي بالتعب في خدمة الخلق، ولا بد، وكذلك من رغب عن الهدى بالوحي ابتُلي بكُناسة الآراء وزُبالة الأذهان، ووسخ الأفكار.

(١٣)-

منزلة البصيرة

قال رحمه الله: فإذا صحت فكرته أوجبت له "البصيرة" وهي نور في القلب يُبصر به الوعد والوعيد، والجنة والنار، وما أعدَّ الله في هذه لأوليائه، وفي هذه لأعدائه، فأبصر الناس وهم قد خرجوا من قبورهم مهطعين لدعوة الحقِّ، وقد نزلت ملائكة السماوات فأحاطت بهم وقد جاء الله، ونُصب كرسيه لفصل القضاء، وقد أشرقت الأرض لنوره، ووضع الكتابُ، وجيء بالنبيين، والشهداء، وقد نصب الميزان، وتطايرت الصحفُ، واجتمعت الخصوم، وتعلَّق كل غريمٍ بغريمه، ولاح الحوضُ وأكوابه عن كثب، وكثر العطاشُ، وقلَّ الموارد، ونُصبَ الجسر للعبور، ولُزَّ الناس إليه، وقسمت الأنوار دون ظلمته للعبور عليه، والنارُ يحطمُ بعضها بعضاً تحته، والمتساقطون فيها أضعاف أضعاف الناجين. فينفتح في قلبه عين يرى بها ذلك، ويقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة يريه الآخرة ودوامها والدنيا وسرعة انقضائها

فالبصيرة: نور يقذفه الله في القلب، يرى به حقيقة ما أخبرت به الرسل، كأنه شاهد رأي عين، فيتحقق مع ذلك انتفاعه بما دعت إليه الرسل، وتضرره بمخالفتهم

البصيرة تُنبِت في القلب الفراسة

قال رحمه الله: البصيرة تنبت في أرض القلب الفراسة الصادقة. وهي نور يقذفه الله في القلب، يفرّق به بين الحق والباطل والصادق والكاذب. قال تعالى: ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ [الحجر:٧٥] قال مجاهد: للمتفرسين.

وعلى حسب قوة البصيرة وضعفها تكون الفراسة.

-(١٤)

منزلة القصد

قال رحمه الله: فإذا انتبه وأبصر أخذ في القصد وصدق الإرادة، وأجمع القصد والنية على سفر الهجرة إلى الله، وعلم وتيقن أنه لابد له منه، فأخذ في أهبة السفر وتعبئة الزاد، والتجرد عن عوائق السفر، وقطع العلائق التي تمنعه من الخروج

وقد قسم صاحب " المنازل" القصد إلى ثلاث درجات...فذكر له ثلاث فوائد: أنه يبعث على السلوك بلا توقفٍ ولا ترددٍ، ولا علةٍ غير العبودية من رياء أو سمعةٍ أو طلب محمده أو جاهٍ ومنزلةٍ عند الخلق

ولا يلقى سبباً يعُوق عن المقصود إلا قطعه، ولا حائلاً دونه إلا منعه، ولا صعوبة إلا سهلها.

منزلة العزم

قال رحمه الله: فإذا استحكم قصده صار عزماً جازماً مستلزماً للشروع في السفر مقروناً بالتوكل على الله قال تعالى: ﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ [آل عمران:١٥٩] والعقد الجازم على المسير، ومفارقة كل قاطع ومعوق، ومرافقة كلِّ معين ومُوصل.

والعزم نوعان: أحدهما: عزم المريد على الدخول في الطريق، وهذا من البدايات، والثاني: عزم في حال السير، وهو أخصُّ من هذا.

(١٥)ـ

منزلة المحاسبة

قال رحمه الله: فلنرجع إلى ذكر منازل ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ التي لا يكون العبدُ من أهلها حتى ينزل منازلها،فذكرنا منها اليقظة، والبصيرة، والفكرة، والعزم.

وهذه المنازل الأربعة لسائر المنازل كالأساس للبنيان، وعليها مدار منازل السفر إلى الله تعالى، ولا يتصور السفر إليه بدون نزولها البتة، وهي على ترتيب السير الحِسِّيَّ، فإن المقيمَ في وطنه لا يتأتى منه السفر حتى يستيقظ من غفلته عن السفر، ثم يتبصر في أمر سفره وخطره وما فيه من المنفعة والمصلحة، ثم يفكِّر في أهبة السفر والتزود وإعداد عدته، ثم يعزم عليه، فإذا عزم عليه وأجمع قصده انتقل إلى منزلة المحاسبة، وهي التميز بين ما له وعليه، فيستصحب ما له، ويؤدي ما عليه.

المقايسة بين نعمة الله على العبد وجناية العبد

قال رحمه الله: قال صاحب المنازل رحمه الله: المحاسبة لها ثلاثة أركان:

أحدها: أن تقيس بين نعمته وجنايتك.

يعني: تقايس بين ما منَ الله وما منك، فحينئذ يظهر لك التفاوتُ، وتعلمُ أنه ليس إلا عفوه ورحمتهُ، أو الهلاك والعطب، وفي هذه المقايسة تعلم أنَّ الربَّ رب والعبد عبد، ويتبين لك حقيقة النفس وصفاتها، وعظمة جلال الربوبية، وتفرد الرب بالكمال والإفضال، وأن كلَّ نعمة منه فضل، وكلَّ نقمة منه عدل، وأنت قبل هذه المقايسة جاهل بحقيقة نفسك وبربوبية فاطرها وخالقها، فإذا قايست ظهر لك أنها منبع كلِّ شرٍّ، وأساس كل نقص، وأن حدها الجاهلة الظالمة، وأنه لولا فضلُ الله ورحمته بتزكيته سبحانه ما زكت أبداً، ولولا هداه ما اهتدت، ولولا إرشاده وتوفيقه لما كان لها وصول إلى الخير البتة.

-(١٦)

سوء الظن بالنفس

قال رحمه الله: قال [أي: صاحب المنازل] وهذه المقايسة تشق على من ليس له ثلاثة أشياء:....وسوء الظن بالنفس.

وأما سوء الظن بالنفس، فإنما احتاج إليه لأن حسن الظن بالنفس يمنع من كمال التفتيش ويُلبس عليه، فيرى المساوئ محاسن، والعيوب كمالاً، فإن المحبَّ يرى مساوئ محبوبه وعيوبه كذلك.

فعينُ الرضا عن كلِّ عيبٍ كليلة كما أن عيب السُخط تُبدى المساويا

ولا يسيءُ الظن بنفسه إلا من عرفها، ومن أحسن ظنه بها فهو من أجهل الناس بنفسه!

الرضا بالطاعة من رعونات النفس وحماقتها:

قال رحمه الله: رضا العبد بطاعته دليل على حسن ظنه بنفسه، وجهله بحقوق العبودية، وعدم علمه بما يستحقُّه الربُّ جلَّ جلالُه ويليق أن يعامل به.

وحاصل ذلك: أن جهله بنفسه وصفاتها وآفاتها وعيوب عمله، وجهله بربه وحقوقه وما ينبغي أن يعامل به يتولد منهما رضاه بطاعته وإحسان ظنِّه بها، ويتولد من ذلك العُجب والكِبر والآفات ما هو أكبر من الكبائر الظاهرة من الزِّنى، وشرب الخمر، والفرار من الزحف، ونحوها، فالرضا بالطاعة من رعونات النفس وحماقتها.

وأرباب العزائم والبصائر أشدُّ ما يكونون استغفاراً عقيب الطاعات لشهودهم تقصيرهم فيها وترك القيام بها كما يليق بجلاله وكبريائه.

(١٧)-

تمييزُ النعمة من الفتنة، والمنة من الحجة:

قال رحمه الله: قال [أي: صاحب المنازل] وهذه المقايسة تشق على من ليس له ثلاثة أشياء:....وتمييز النعمة من الفتنة

وأما تمييزُه النعمة من الفتنة، ليفرّق بين النعمة التي يُرادُ بها الإحسان واللطف، ويُعانُ بها على تحصيل سعادته الأبدية، وبين النعمة التي يراد بها الاستدراج، فكم من مستدرج بالنعم وهو لا يشعر، مفتون بثناء الجهال عليه، مغرورٍ بقضاء الله حوائجه وستره عليه! وأكثرُ الخلق عندهم أن هذه الثلاثة علامةُ السعادة والنجاح. ﴿ ذلك مبلغهم من العلم ﴾ [النجم:٣٠]

ويميز..أيضاً بين المنة والحجة..فإن العبد بين منةٍ من الله عليه، وحجة منه عليه، ولا ينفك منهما.

فكلُّ علم صحبه عمل يرضيه سبحانه فهو منة، وإلا فهو حجة.

وكلُّ قوة ظاهرة أو باطنةٍ صحبها تنفيذ لمرضاته وأوامراه فهي منة، وإلا فهي حجة.

وكلُّ مال اقترن به إنفاق في سبيل الله وطاعته، لا لطلب الجزاء، ولا الشكور، فهو منة من الله عليه، وإلا فهو حجة.

وكل فراغ اقتران به اشتغال بما يريد الربُّ من عبده فهو منة عليه، وإلا فهو حجة.

وكلُّ قبول في الناس وتعظيم ومحبةٍ، اتصل به خضوع للربِّ وذل وانكسار، ومعرفة عيوب النفس والعمل، وبذل النصيحة للخلق فهم منة، وإلا فهو حجة.

فليتأمل العبدُ هذا الموضع العظيم الخطير، ويميز بين مواقع المنة ومواقع الحجة، فما أكثر ما يلتبس ذلك على خواص الناس وأرباب السلوك! والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم.

-(١٨)

أنينُ المذنبين أحبُّ إليه من زجل المسبِّحين المُدلِّين!:

قال رحمه الله: تعيرك لأخيك بذنبه أعظم إثماً من ذنبه وأشدُّ من معصيته، لما فيه من صولة الطاعة، وتزكية النفس وشكرها، والمناداة عليها بالبراءة من الذنب، وأن أخاك هو الذي باء به، ولعل كسرته بذنبه وما أحدث له من الذلة والخضوع والإزراء على نفسه، والتخلص من مرض الدعوى والكبر والعجب، ووقوفه بين يدي الله ناكس الرأس خاشع الطرف منكسر القلب أنفع له وخير له من صولة طاعتك، وتكثرك بها، والاعتداد بها، والمنة على الله وخلقه بها، فما أقرب هذا العاصي من رحمة الله! وما أقرب هذا المُدِلَّ من مقت الله! فذنب تذلُّ به لديه أحبُّ إليه من طاعة تُدلُّ بها عليه، وأنينُ المذنبين أحبُّ إليه من زجل المسبِّحين المُدلِّين! ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواءً استخرج به داء قاتلاً هو فيك ولا تشعر.

فلله في أهل طاعته ومعصيته أسرار لا يعلمها إلا هو، ولا يطالعها إلا أهل البصائر، ولا يأمن كرَّات القدر وسطواته إلا أهل الجهل بالله، وقد قال تعالى لأعلم الخلق، وأقربهم إليه وسيلةً: ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدتَّ تركن إليهم شيئاً قليلاً ﴾ [الإسراء:٧٤] وقال يوسف الصَّديق: ﴿ وإلا تصرف عني كيدهن أصبُ إليهن وأكنُ من الجاهلين ﴾ [الإسراء: ٧٤] وكان عامة يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا، ومقلب القلوب) وقال: (ما من قلبٍ إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يُزيغه أزاغه) ثم قال: (اللهم مقلِّب القلوب ثبت قلوبنا على دينك) (اللهم مصرف القلوب صرِّف قلوبنا على طاعتك)

-(١٩)

منزلة التوبة

قال رحمه الله: فإذا صحَّ له هذا المقام، ونزل في هذه المنزلة، أشرف منها على مقام التوبة، لأنه بالمحاسبة قد تميز عنده ما له مما عليه، فليجمع على التشمير إليه والنزول فيه إلى الممات.

ومنزلة التوبة أول المنازل وأوسطها وآخرها، فلا يفارقه العبد، ولا يزال فيه إلى الممات، وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به، ونزل به، فالتوبة هي بداية العبد ونهايته، وحاجته إليها في النهاية ضرورية، كما حاجته إليها في البداية كذلك.

الفرح بالمعصية أشدُّ ضرراً من مواقعتها، ودليلُ على الجهل بقدر من عصاه:

قال رحمه الله: الفرحُ بالمعصية دليلُ شدة الرغبة فيها، والجهل بقدر من عصاه، والجهل بسوء عاقبتها وعظم خطرها ففرحه بها غطى عليه ذلك كله، وفرحه بها أشدُّ ضرراً عليه من مواقعتها، والمؤمن لا تتم لذته بمعصيته أبداً، ولا يكمل بها فرحه، بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه، ولكن سكر الشهوة يحجبه عن الشعور به، ومتى خلا قلبه من هذا الحزن واشتدت غبطته وسروره فليتهم إيمانه، وليبكِ على موت قلبه، فإنه لو كان حياً لأحزنه ارتكابه للذنب، وغاظه، وصعب عليه، ولأحسَّ القلب بذلك، فحيث لم يُحسَّ به فـ" ما لجرح بميت إيلام"

المجاهرة بالذنب دائر بين قلة الحياء وبين الكفر والانسلاخ من الدين

قال رحمه الله: وأشدُّ من هذا كله: المجاهرة بالذنب مع تيقن نظر الرب جل جلاله من فوق عرشه إليه، فإن آمن بنظره إليه وأقدم على المجاهرة فعظيم، وإن لم يؤمن بنظره إليه واطلاعه عليه فكفر وانسلاخ من الإسلام بالكلية، فهو دائر بين الأمرين: بين قلة الحياء ومجاهرة نظر الله إليه، وبين الكفر والانسلاخ من الدين.

ـ(٢٠)

علامات التوبة المقبولة الصحيحة:

قال رحمه الله: التوبة المقبولة الصحيحة لها علامات:

منها: أن يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبل الخطيئة.

ومنها: أنه لا يزال الخوف مصاحباً له، لا يأمن طرفة عين، فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه: ﴿ ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كُنتم تُوعدون ﴾ [فصلت: ٣٠] فهناك يزول الخوف.

ومنها: انخلاع قلبه، وتقطعه ندماً وخوفاً، وهذا على قدر عِظَمِ الجناية وصغرها..ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يُوجب انصداع القلب وانخلاعه..وهذا حقيقة التوبة، لأنه يتقطع قلبه حسرةً على ما فرط منه، وخوفاً من سوء عاقبته، فمن لم يتقطع قلبه في الدنيا على ما فرط حسرةً وخوفاً، تقطع في الآخرة إذا حقَّت الحقائق، وعاين ثواب المطيعين، وعقاب العاصين، فلا بدَّ من تقطُّع القلب إمّا في الدنيا وإمّا في الآخرة.

ومنها: كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء..تكسر القلب...كسرةً تامةً قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقته بين يدي ربه طريحاً ذليلاً خاشعاً..فلله ما أحلى قوله في هذا الحال: أسألك بعزك وذلي لك إلا رحمتني، أسألك بقوتك وضعفي وبغناك وفقري إليك، هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك عبيدك سواي كثير وليس لي سيد سواك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، أسألك مسألة المسكين وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل وأدعوك دعاء الخائف الضرير سؤال من خضعت لك رقبته ورغم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذلَّ لك قلبه.

فهذا من آثار التوبة المقبولة فمن لم يجد ذلك..فليتهم توبته وليرجع إلى تصحيحها.

-(٢١)

صاحب البصيرة إذا صدرت منه الخطيئة نظر إلى أمور تحدث له معرفة بالله:

قال رحمه الله: اعلم أن صاحب البصيرة إذا صدرت منه الخطيئة نظر...إلى تمكين الله تعالى له منها، وتخليته بينه وبينها، وتقديرها عليه، وأنه لو شاء عصمه منها وحال بينها وبينه، فيُحدثُ له ذلك أنواعاً من المعرفة بالله وأسمائه وصفاته، وحكمته، ورحمته، ومغفرته، وعفوه، وحلمه، وكرمه، وتوجب له هذه المعرفة عبودية بهذه الأسماء لا تحصل بدون لوازمها البتة...فمن بعضها: معرفة عزته في قضائه: فيعرف أنه مدبر مقهور، ناصيته بيد غيره، لا عصمة له إلا بعصمته، ولا توفيق له إلا بمعونته.

ومنها: أن يعرف برَّه سبحانه في ستره عليه حال ارتكاب المعصية مع كمال رؤيته له، ولو شاء لفضحه بين خلقه فحذِروه، وهذا من كمال بره، ومن أسمائه البرَّ، وهذا البرُّ من سيده به مع كمال غناه عنه، وكمال فقر العبد إليه، فيشتغل بمطالعة هذه المنة ومشاهدة هذا البرِّ والإحسان والكرم.

ومنها: شهودُه حلم سبحانه تعالى في إمهال راكب الخطيئة، ولو شاء لعاجله بالعقوبة، ولكنه الحليم الذي لا يعجل، فيحدث له ذلك معرفته سبحانه باسمه الحليم ومنها: معرفةُ العبد كرم ربه في قبول العذر منه إذا اعتذر إليه...فيقبل عذره بكرمه وجوده، فيوجب له ذلك اشتغالاً بذكره وشكره.

ومنها: أن يشهد فضله في مغفرته، فإن المغفرة فضل من الله تعالى، وإلا فلو واخذنا بالذنب لواخذ بمحض حقه، وكان عادلاً محموداً، وإنما غفره بفضله لا باستحقاقك فيوجب لك ذلك أيضاً شكراً له، ومحبة إليه، وإنابة إليه، وفرحاً وابتهاجاً به، ومعرفةً له باسمه الغفار، مشاهدةً لهذه الصفة، وتعبداً بمقتضاها.

-(٢٢)

صاحب البصيرة إذا صدر منه الذنب نظر إلى محل الجناية وسعى لإصلاحه

قال رحمه الله: العبد في الذنب له نظر إلى...محل الجناية ومصدرها، وهو النفس الأمارةُ بالسوء، ويفيده نظره إليها أموراً، منها: أنها جاهلة ظالمة، وأن الجهل والظلم يصدر عنهما كل قول وعمل قبيح، ومن وصفه الجهل والظلم لا مطمع في استقامته واعتداله البتة، فيوجب له ذلك بذل الجهد في العلم النافع الذي يُخرجها به عن وصف الجهل، والعمل الصالح الذي يُخرجها به عن وصف الظلم.

وحقيق بمن هذا شأنه أن يرغب إلى خالقها وفاطرها أن يقيه شرها، وأن يؤتيها تقواها، ويزكيها، فهو خير من زكاها، فإنما وليها ومولاها، وأن لا يكله إليها طرفة عين، فإن وكله إليها هلك، فما هلك من هلك إلا حيث وكل إلى نفسه،وقال النبي صلى الله عليه وسلم لحصين بن المنذر: (قل: اللهم ألهمني رُشدي، وقني شرَّ نفسي)

صاحب البصيرة إذا صدر منه الذنب نظر إلى الآمر بها فاتخذه عدواً له:

قال رحمه الله: العبد في الذنب له نظر إلى...الآمر له بالمعصية، المزين له فعلها، الحاضِّ له عليها وهو شيطانه الموكل به، فيفيده النظر إليه وملاحظته اتخاذه عدواً، وكمال الاحتراز منه والتحفظ واليقظة والانتباه لما يريده منه عدوه وهو لا يشعر

خطورة الإصرار على المعصية

الإصرار على المعصية يوجب..خوف القلب من غير الله، ورجائه لغير الله، وحبه لغير الله، وذلِّه لغير الله، وتوكله على غير الله، ما يصير به منغمساً في بحار الشرك، والحاكم من هذا ما يعلمه الإنسان من نفسه إن كان ذا عقل فإن ذلَّ المعصية لا بد أن يقوم بالقلب فيورثه خوفاً من غير الله..ويورثه محبةً لغير الله، واستعانة بغيره في الأسباب التي توصله إلى غرضه، فيكون عمله لا بالله ولا له، وهذا حقيقية الشرك.

-(٢٣)

أولياؤه إذا شاهدوا أحوال أعدائه ازدادوا له خضوعاً وافتقاراً وانكساراً:

قال رحمه الله: أولياؤه المتقون، إذا شاهدوا أحوال أعدائه ومقته لهم، وغضبه عليهم، وخذلانه لهم، ازدادوا له خضوعاً وذُلاً وافتقاراً وانكساراً، وبه استعانةً، وإليه إنابةً، وعليه توكلاً، وفيه رغبةً، ومنه رهبةً، وعلموا أنه لا ملجأ لهم منه إلا إليه، وأنه لا يعيذهم من بأسه إلا هو، ولا ينجيهم من سخطه إلا مرضاته، فالفضل بيده أولاً وآخراً.

قلوب المعرضين عن الله في جحيم وقلوب الأبرار في نعيم في دورهم الثلاثة:

قال رحمه الله: قلوب أهل البدع، والمعرضين عن القرآن، وأهل الغفلة عن الله، وأهل المعاصي في جحيم قبل الجحيم الكبرى، وقلوب الأبرار في نعيم قبل النعيم الأكبر، ﴿ إن الأبرار لفي نعيم * وإن الفجار لفي جحيم ﴾ [الانفطار:١٣-١٤] هذا في دورهم الثلاثة، ليس مختصاً بالدار الآخرة، وإن كان تمامه وكماله وظهوره لهما هو في الدار الآخرة وفي البرزخ دون ذلك.

منزلة الإنابة

قال رحمه الله: فإذا استقرت قدمه في منزل التوبة نزل بعده في منزل الإنابة، وقد أمر به تعالى في كتابه، وأثنى على خليله به، فقال: ﴿ وأنيبوا إلى ربكم ﴾ [الزمر:٥٤] وقال: ﴿ إن إبراهيم لحليم أواه مُنيب ﴾ [هود:٧٥]

وأخبر أن آياته يتبصر بها ويتذكر أهل الإنابة، فقال: ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزينها وما لها من فُروج * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوجٍ بهيج * تبصرة وذكرى لكل عبدٍ منيبٍ ﴾ [ق:٦-٨]

وقال تعالى: ﴿ هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر إلا من يُنيب ﴾ [غافر:١٣]

الإنابة إنابتان:

قال رحمه الله: الإنابة إنابتان: إنابة لربوبيته، وهي إنابة المخلوقات كلها، يشترك فيها المؤمن والكافر، والبرُّ والفاجر، قال الله تعالى: ﴿ وإذا مسَّ الناس ضُر دعوا ربهم مُنبين إليه ﴾ [الروم:٣٣] فهذا عام في حقِّ كلِّ داع أصابه ضر، كما هو الواقع.

والإنابة الثانية: إنابة أوليائه، وهي إنابة لإلهيته إنابة عبوديةٍ ومحبةٍ، وهي تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، فلا يستحق اسم المنيب إلا من اجتمعت فيه هذه الأربعة، وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك.

وفي اللفظة معنى الإسراع والرجوع والتقدُّم، فالمنيب إلى الله المسرع إلى مرضاته، الراجع إليه في كل وقت، المتقدم إلى محابِّه.

ـ(٢٥)

من علامات الإنابة: ترك الاستهانة بأهل الغفلة:

قال رحمه الله: ومن علامات الإنابة تركُ الاستهانة بأهل الغفلة والخوف عليهم مع فتحك باب الرجاء لنفسك، فترجو لنفسك الرحمة وتخشى على أهل الغفلة النقمة، ولكن ارجُ لهم الرحمة واخشَ على نفسك النقمة، فإن كنت لا بدَّ مستهيناً بهم ماقتاً لهم لانكشاف أحوالهم لك ورؤية ما هم عليه، فكن لنفسك أشدَّ مقتاً منك لهم، وكن لهم أرجى لرحمة الله منك لنفسك.

علل النفوس وحظوظها تمنع من وصول الأعمال إلى الله عز وجل:

قال رحمه الله: كم في النفوس من علل وأغراضٍ وحظوظٍ تمنع الأعمال أن تكون لله خالصة وأن تصل إليه! وإن العبد ليعمل العمل حيث لا يراه بشر البتة وهو غير خالص لله، ويعمل العمل والعيون قد استدارت عليه نطاقاً، وهو خالص لوجه الله، ولا يميز هذا من هذا إلا أهل البصائر وأطباء القلوب العالمون بأدوائها وعللها.

فبين العمل وبين القلب مسافة، وفي تلك المسافة قطَّاع تمنع وصول العمل إلى القلب، فيكون الرجل كثير العمل وما وصل منه إلى قلبه محبة ولا خوف ولا رجاء، ولا زهد في الدنيا ورغبة في الآخرة، ولا قوة في أمره، فلو وصل أثر الأعمال إلى قلبه لاستنار وأشرق، ورأى الحق والباطل، وميَّز بين أولياءه وأعدائه فأوجب له ذلك المزيد من الأحوال.

ثم بين القلب وبين الرب مسافة، وعليها قطاع تمنع وصول العمل إليه من كبر وإعجاب وإدلالٍ، ورؤية العمل ونسيان المنة، وعلل خفية لو استقصى في طلبها لرأى العجب، ومن رحمة الله سترها على أكثر العُمال، إذ لو رأوها وعاينوها لوقعوا فيما هو أشد منها، من اليأس والقنوط والاستحسار وترك العمل.

-(٢٦)

منزلة التذكر:

قال رحمه الله: ثم ينزل القلب منزل التذكُّر، وهو قرين الإنابة، قال تعالى: ﴿ وما يتذكر إلا من ينيب﴾[غافر:١٣]وقال ﴿تبصرةً وذكرى لكُل عبدٍ مُنيب﴾[ق:٨] وهو من خواص أولي الألباب، كما قال تعالى: ﴿ وما يذكر إلا أُولُوا الألباب ﴾

والتذكُّر والتفكُّر منزلان يُثمران أنواع المعارف وحقائق الإيمان والإحسان، فالعارف لا يزال يعود بتفكره على تذكُّره، وتذكُّره على تفكره، حتى يفتح قلبه بإذن الفتاح العليم، قال الحسن البصري رضي الله عنه: ما زال أهل العلم يعودون بالتذكُّر على التفكُّر، وبالتفكُّر على التذكُّر، ويناطقون القلوب حتى نطقت.

الانتفاع بالعظة المسموعة والمشهودة:

قال رحمه الله: العظة هي الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب.

والعظة نوعان: عظة بالمسموع، وعظة بالمشهود.

فالعظة بالمسموع الانتفاع بما يسمعه من الهدى والرشاد والنصائح التي جاءت على يد الرسل، وكذلك الانتفاع بالعظة من كل ناصح ومرشد في مصالح الدين والدنيا.

والعظة بالمشهود: الانتفاع بما يراه ويشهده في العالم من مواقع العِبر وأحكام القدر ومجاريه، وما يشاهده من آيات الله الدالة على صدق رسله.

اتباع الهوى يطمس نور العقل ويعمى بصيرة القلب:

قال رحمه الله: اتباع الهوى يطمس نور العقل ويعمى بصيرة القلب ويصدُّ عن اتباع الحق، ويضل عن الطريق المستقيم، فلا تحصل بصيرة العبرة معه البتة، والعبد إذا اتبع هواه فسد رأيه ونظره، فأرته نفسُه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن، فالتبس عليه الحق بالباطل، فأنى له الانتفاع بالتذكُّر أو بالتفكُّر أو بالعظة ؟ ـ(٢٧)

التأمُّل في القرآن:

قال رحمه الله: التأمُّل في القرآن فهو تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وتعقُّله، وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا تفهم ولا تدبر، قال تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مُبارك ليدبروا آياته وليتذكر أُولُوا الألباب ﴾ [ص:٢٩] وقال تعالى: ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ [محمد:٢٤] وقال: ﴿أفلم يدبروا القول ﴾ [المؤمنون:٦٨] وقال: ﴿ إنا جعلناه قُرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ [الزخرف: ٣] قال الحسن رضي الله عنه: نزل القرآن ليُتدبر ويُعمل به، فاتخذوا تلاوته عملاً.

فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن وإطالة التأمُّل له، وجمع الفكر على معاني آياته، فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ومآل أهلهما، وتتُلُّ في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبيت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنياته وتوطد أركانه وتريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه وتُحضره بين الأمم وتريه أيام الله فيهم وتبصره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله وما يحبُّه وما يبغضه وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول إليه والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها، وتعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم وأحوالهم...ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه وافتراقهم فيما يفترقون فيه وتعرفه.ما يدعو إليه الشيطان والطريق الموصلة إليه وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه.

(٢٨)-

تجتنى ثمرة الفكرة بـ.....قلة الخلطة:

قال رحمه الله: فأما ما تؤثره كثرة الخلطة، فامتلاء القلب من دخان أنفاس بني آدم حتى يسودَّ، ويوجب له تشتتاً وتفرقاً، وهماً وغماً وضعفاً، وحملاً لما يعجز عن حمله من مؤنة قرناء السوء،

وإضاعة مصالحه والاشتغال عنها بهم وبأمورهم، وتقسيم فكره في أودية مطالبهم وإرادتهم، فما ذا يبقى منه لله والدار الآخرة ؟

هذا وكم جلبت خلطة الناس من نقمة، ودفعت من نعمة، وأنزلت من محنة، وعطَّلت من منحة، وأحلت من رزية، وأوقعت في بلية، وهل آفة الناس إلا الناس، وهل كان على أبي طالب عند الوفاة أضرُّ من قرناء السوء؟

لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمةٍ واحدةٍ توجب له سعادة الأبد.

وإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في فضول المباحات، فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة لله إن أمكنه، ويشجع نفسه ويقوي قلبه، ولا يلتفت إلى الوارد الشيطاني القاطع له عن ذلك بأن هذا رياء ومحبة لإظهار علمك وحالك، ونحو ذلك، فليحاربه وليستعن بالله تعالى، ويؤثر فيهم من الخير ما أمكنه، فإن عجَّزته المقادير عن ذلك، فليسُلَّ قلبه من بينهم كسلِّ الشعرة من العجين، وليكن فيهم حاضراً غائباً، حاضراً غائباً، قريباً، بعيداً، ينظر إليهم ولا يبصرهم، ويسمع كلامهم ولا يعيه، لأنه قد أخذ قلبه من بينهم.

وما أصعب هذا وأشقه على النفوس، وإنه ليسير على من يسَّره الله عليه، فبين العبد وبينه أن يصدق الله ويديم اللَّجأ إليه، ويُلقى نفسه على بابه طريحاً ذليلاً، ولا يعين على هذا إلا المحبة الصادقة، والذكر الدائم بالقلب واللسان...ولا ينال هذا إلا بعدةٍ صالحةٍ ومادةً قويةٍ من الله، وعزيمةٍ صادقة، وفراغٍ من التعلُّق بغير الله.

-(٢٩)

قصر الأمل:

قال رحمه الله: فأمَّا قصر الأمل فهو العلم بقرب الرحيل وسرعة انقضاء مدَّة الحياة، وهو من أنفع الأمور للقلب، فإنه يبعثه على مغافصة الأيام، وانتهاء الفرص التي تمرُّ مرَّ السحاب، ومبادرة طيِّ صحائف الأعمال، ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء، ويحثُّه على قضاء جهاز سفره وتدارك الفارط، ويزهده في الدنيا ويرغبه في الآخرة، فيقوم بقلبه إذا داوم مطالعة قصر الأمل شاهد من شواهد اليقين يريه فناء الدنيا وسرعة انقضائها وقلة ما بقي منها، وأنها قد ترحلت مدبرة، ولم يبق منها..إلا كما بقي من يوم صارت شمسه على رؤوس الجبال، ويريه بقاء الآخرة ودوامها، وأنها قد ترحلت مقبلة، وقد جاء أشرطها وأعلامها، وأنه من لقائها كمسافر خرج صاحب له يتلقاه، وكل منهما يسير إلى الآخر، فيوشك أن يلتقيا سريعاً.

أعظم الناس خذلاناً من تعلق بغير الله:

قال رحمه الله: فأعظم الناس خذلاناً من تعلق بغير الله، فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه أعظمُ مما حصل له ممن تعلق به، وهو معرض للزوال والفوات، ومثل المتعلق بغير الله كمثل المستظل من الحرِّ والبرد ببيت العنكبوت أوهن البيوت.

(٣٠)-

منزلة الاعتصام

قال رحمه الله: ثم ينزل القلب منزل الاعتصام، وهو نوعان: اعتصام بالله، واعتصام بحبل الله، قال تعالى: ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ [آل عمران:١٠٣] وقال تعالى: ﴿ واعتصموا بالله جميعاً هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير ﴾ [الحج:٧٨]

والاعتصام افتعال من العصمة، وهو التمسك بما يعصمك ويمنعك من المحذور المخوف، فالعصمة: الحمية، والاعتصام: الاحتماء، ومنه سميت القلاع: العواصم، لمنعها وحمايتها.

ومدار السعادة الدنيوية والأخروية على الاعتصام بالله، والاعتصام بحبله، ولا نجاة إلا لمن استمسك بهاتين العصمتين.

فأما الاعتصام بحبله فإنه يعصم من الضلالة، والاعتصام به يعصم من الهلكة

والاعتصام به فهو التوكل عليه والامتناع به، والاحتماء به وسؤاله أن يحمي العبد ويمنعه، ويعصمه ويدفع عنه، فإن ثمرة الاعتصام به هو الدفع عن العبد، والله يدفع عن الذين آمنوا، فيدفع عن عبده المؤمن به إذا اعتصم به كلَّ سبب يفضي إلى العطب ويحميه منه، فيدفع عنه الشبهات والشهوات، وكيد عدوه الباطن والظاهر، وشرَّ نفسه، ويدفع عنه موجب أسباب الشرِّ بعد انعقادها بحسب قوة الاعتصام به وتمكنه، فينعقد في حقِّه أسبابُ العطب فيدفع عنه موجباتها ومسبباتها، ويدفع عنه قَدَرَه بقدره، وإراداته بإرادته، ويعيذه به منه.

منزلة الفرار

قال رحمه الله: ومن منازل ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين ﴾ : منزلة الفرار. قال تعالى: ﴿ ففروا إلى الله ﴾ [الذاريات:٥٠]

وحقيقية الفرار: الهروب من شيءٍ إلى شيءٍ، وهو نوعان: فرار السعداء، وفرار الأشقياء. ففرار السعداء: الفرار إلى الله تعالى، وفرار الأشقياء: الفرار منه لا إليه.

وأما الفرار منه إليه ففرار أوليائه، قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ففروا إلى الله ﴾ [الذاريات:٥٠] فروا منه إليه واعملوا بطاعته. وقال سهل بن عبدالله: فرُّوا مما سوى الله إلى الله، وقال آخرون: اهربوا من عذاب الله إلى ثوابه بالإيمان والطاعة.

الفرار من الجهل إلى العلم:

قال رحمه الله: الجهل نوعان: عدم العلم بالحق النافع، وعدم العمل بموجبه ومقتضاه، فكلاهما جهل لغةً وعرفاً وشرعاً وحقيقةً، قال موسى:﴿ أعوذُ بالله أن أكونَ من الجاهلين ﴾ لما قال له قومه: ﴿ أتتخذنا هُزواً ﴾ [البقرة:٦٧] أي المستهزئين، وقال يوسف الصديق: ﴿ وإلا تصرف عني كيدهن أصبُ إليهن وأكن من الجاهلين ﴾ [يوسف:٣٣] أي من مرتكبي ما حرمت عليهم.

وقال تعالى: ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ﴾ [النساء:١٧] قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنَّ كلَّ من عُصي الله به فهو جهالة، وقال غيره: أجمع الصحابة على أنَّ كلَّ من عصى الله فهو جاهل.

فالفرار المذكور: الفرار من الجهلين، من الجهل بالعلم إلى تحصيله اعتقاداً ومعرفةً وبصيرةً، والفرار من جهل العمل إلى السعي النافع والعمل الصالح قصداً وسعياً.

-(٣٢)

شجر ثمرها الحسرات والندامات:

قال رحمه الله: الجدُّ ها هنا صدق العزم، وإخلاصه من شوائب الفتور ووعود التسويف والتهاون، وهو تجنب السين وسوف وعسى ولعل فهو أضرُّ شيءٍ على العبد، وهي شجر ثمرها الحسرات والندامات

الفرق بين الجدُّ والعزم:

قال رحمه الله: والفرق بين الجدِّ والعزم أن العزم صدق الإرادة واستجماعها، والجدُّ صدق العمل وبذل الجهد فيه، وقد أمر الله سبحانه بتلقي أوامره بالعزم والجدِّ، فقال: ﴿ خُذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ [البقرة: ٦٣] وقال: ﴿ وكتبنا له في الألواح من كل شيءٍ موعظة وتفصيلاً لكل شيءٍ فخُذها بقوةٍ ﴾ [الأعراف:١٤٥] وقال: ﴿ يا يحيى خُذ الكتاب بقوة ﴾ [مريم:١٢] أي بجدٍّ واجتهادٍ وعزمٍ، لا كمن يأخذ ما أمرته بتردٍد وفتورٍ.

هروب العبد من ضيق صدره وهمومه وأحزانه إلى سعة فضاء الثقة بالله:

قال رحمه الله: وقوله: " ومن الضيق إلى السعة ثقةً ورجاءً "

يريد هروب العبد من ضيق صدره بالهموم والغموم والأحزان والمخاوف التي تعتريه في هذه الدار من جهة نفسه..وما يتعلق بماله وبدنه وأهله وعدوه، يهرب من ضيق صدره بذلك كله إلى سعة فضاء الثقة بالله، وصدق التوكل عليه، وحسن الرجاء لجميل صنعه به، وتوقع المرجو من لطفه وبرّه، ومن أحسن كلام العامة: لا همَّ مع الله.

وكلما كان العبد حسن الظن بالله، حسن الرجاء له، صادق التوكل عليه، فإن الله لا يخيب أمله فيه البتة، فإنه سبحانه لا يخيب أمل آمل، ولا يضيع عمل عامل.

-(٣٣)

منزلة الرياضة

قال رحمه الله: ومن منازل ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين ﴾ : الرياضة، وهي تمرين النفس على الصدق والإخلاص.

قال صاحب المنازل رحمه الله: "وهي تمرين النفس على قبول الصدق"

وهذا يراد به أمران: تمرينها على قبول الصِّدق إذا عرضه عليها في أقواله وأفعاله وإرادته، فإذا عرض عليها الصدق قبلته وانقادت له وأذعنت له.

والثاني: قبول الحق ممن عرضه عليه، قال تعالى: ﴿ والذي جاء بالصدق وصدَّقّ به أولئك هم المُتقون ﴾ [الزمر:٣٣] فلا يكفي صدقك، بل لا بد من صدقك وتصديقك للصادقين، فكثير من الناس يصدُق، ولكن يمنعه من التصديق كبر أو حسد أو غير ذلك.

تهذيب الأخلاق بالعلم:

قال رحمه الله: أما تهذيب الأخلاق بالعلم، فالمراد به إصلاحها وتصفيتها بموجب العلم، فلا يتحرك بحركةٍ ظاهرةٍ أو باطنةٍ إلا بمقتضى العلم، فتكون حركات ظاهره وباطنه موزنةً بميزان الشرع.

-(٣٤)

منزلة السماع:

قال رحمه الله: ومن منازل ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين ﴾ :منزلة السماع.

وقد أمر الله به في كتابه وأثنى على أهله، وأخبر أن البشرى لهم، فقال تعالى: ﴿واتقوا الله وسمعوا ﴾ [المائدة:١٠٨] وقال: ﴿ واسمعوا وأطيعوا ﴾ [التغابن:١٦] وقال: ﴿ ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ﴾ [النساء:٤٦]

وأخبر عن أعدائه أنهم هجروا السماع ونهوا عنه، فقال: ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ﴾ [فصلت:٢٦]

فالسماعَ رسولُ الإيمان إلى القلب وداعيه ومعلمه، وكم في القرآن من قوله: ﴿أفلا تسمعون ﴾ فالسمع أصل العقل، وأساس الإيمان الذي انبنى عليه، وهو رائده وجليسه ووزيره، ولكن الشأن كلَّ الشأن في المسموع، وفيه وقع خبط الناس واختلافهم، وغلط من غلط منهم.

المسموع على ثلاثة أضربٍ:

قال رحمه الله: فأما المسموع فعلى ثلاثة أضربٍ:

أحدهما: مسموع يحبه الله ويرضاه، وأمر به عباده، وأثنى على أهله ورضي عنهم به.

والثاني: مسموع يبغضه ويكرهه، ونهى عنه، ومدح المعرضين عنه.

الثالث: مسموع مباح مأذون فيه، لا يحبه ولا يبغضه، ولا مدح صاحبه ولا ذمَّه، فحكمه حكم سائر المباحات من المناظر والمشامِّ والمطعومات والملبوسات المباحة.

(٣٥)ـ

السماع الذي مدحه الله جل جلاله في كتابه:

قال رحمه الله: السماع الذي مدحه في كتابه، وأمر به، وأثنى على أصحابه، وذم المعرضين عنه ولعنهم وجعلهم أضلَّ من الأنعام، وهم القائلون في النار: ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كُنا في أصحاب السعير ﴾ [الملك: ١٠]

وهو سماع آياته المتلوة التي أنزلها على رسوله صلى الله عليه وسلم، فهذا السماع أساس الإيمان الذي عليه بناؤه، وهو على ثلاثة أنواع: سماع إدراكٍ بحاسة الأذن، وسماع فهمٍ وعقلٍ، وسماع إجابةٍ وقبولٍ، والثلاثة في القرآن.

وسماع خاصة الخاصَّة المقربين هو سماع القرآن بالاعتبارات الثلاثة: إدراكاً، وفهماً وتدبراً، وإجابة، وكل سماع في القرآن مدح الله أصحابه وأثنى عليهم، وأمر به أولياءه فهو هذا السماع.

وهو سماع الآيات، لا سماع الأبيات، وسماع القرآن، لا سماع الشيطان، وسماع المراشد، لا سماع القصائد، وسماع الأنبياء والمرسلين والمؤمنين، لا سماع المغنين والمطربين، وسماع كلام رب الأرض والسماء، لا سماع قصائد الشعراء.

فهذا السماع حادٌ يحدو القلوب إلى جوار علام الغيوب، وسائق يسوق الأرواح إلى ديار الأفراح، ومحرك يثير ساكن العزمات إلى أعلى المقامات وأرفع الدرجات، ومنادٍ ينادي للإيمان، ودليل يدل بالركب في طريق الجنان.

فلن تعدم من هذا السماع إرشاداً لحجة، وتبصرةً لعبرة، وتذكرةً لمعرفة، وفكرةً في آية، ودلالةً على رشد، ورداً عن ضلالة، وإرشاداً عن غيٍّ، وبصيرة عن عمى، وأمراً بمصلحة ونهياً عن مضرة ومفسدة وهداية إلى نور وإخراجاً من ظلمة، وزجراً عن هوى، وحثّاً على تُقى، وجلاً لبصيرة، وحياة لقلب وغذاء، ودواءً وشفاءً.

-(٣٦)

السماع الذي يبغضه الله جل جلاله ويكرهه:

قال رحمه الله: القسم الثاني من السماع: ما يبغضه ويكرهه ويمدح المعرض عنه، وهو سماع كلِّ ما يضره في قلبه ودينه، كسماع الباطل كلِّه، إلا تضمن ردَّه وإبطاله

وكسماع اللغو الذي مدح الله التاركين لسماعه، والمعرضين عنه، بقوله: ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ﴾[القصص:٥٥]وقوله ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾ قال محمد ابن الحنفية رضي الله عنه: هو الغناء، قال الحسن أو غيره: أكرموا نفوسهم عن سماعه.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل.

وهذا كلام عارفٍ بأثر الغناء وثمرته، فإنه ما اعتاده أحد إلا نافق قلبه وهو لا يشعر، ولو عرف حقيقة النفاق وغايته لأبصره في قلبه، فإنه ما اجتمع في قلب محبة الغناء ومحبة القرآن إلا وطردت إحداهما الأخرى، وقد شاهدنا نحن وغيرنا ثقل القرآن على أهل الغناء وسماعه، وتبرُّمهم به، وصياحهم بالقارئ إذا طول عليهم، وعدم انتفاع قلوبهم بما يقرؤه، فلا تتحرك ولا تطرب ولا يهيج منها بواعث الطلب، فإذا جاء قرآن الشيطان فلا إله إلا الله، كيف تخشع منهم الأصوات، وتهدأ الحركات، وتسكن القلوب وتطمئن، ويقع البكاء والوجد، والحركة الظاهرة والباطنة، والسماحة بالأثمان والثياب، وطيبُ السهر وتمنِّي طول الليل!

فإن لم يكن هذا نفاقاً فهو آخيَّة النفاق وأساسه.

والذي شاهدناه نحن وغيرنا وعرفناه بالتجارب أنه ما ظهرت المعازف وآلات اللهو في قوم وفشت فيهم واشتغلوا بها إلا سُلط عليهم العدو، وبُلُوا بالقحط والجدب وولاة السوء، والعاقل يتأمل أحوال العالم وينظر، والله المستعان.

(٣٧)-

منزلة الخوف:

قال رحمه الله: ومن منازل ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين ﴾: منزلة الخوف، وهي من أجلِّ المنازل وأنفعها للقلب.

وهو فرض على كلِّ أحد، قال تعالى: ﴿ فلا تخافوهم وخافونِ إن كنتم مؤمنين ﴾ [آل عمران:١٧٥] وقال تعالى: ﴿ وإياي فاتقون ﴾ [البقرة:٤١] وقال: ﴿ فلا تخشوا الناس واخشون ﴾ [المائدة:٤٤]

ومدح أهله في كتابه وأثنى عليهم فقال: ومدح أهله في كتابه وأثنى عليهم فقال: ومدح أهله في كتابه وأثنى عليهم فقال: ﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون* والذين هم بآيات ربهم يؤمنون* والذين هم بربهم لا يشركون* والذين يُؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم لا يرجعون* أولئك يُسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾ وفي المسند والترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلتُ يا رسول الله: ﴿ الذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة ﴾ أهو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق ؟ قال: (لا يا ابنة الصديق، ولكنه الرجل يصوم ويصلِّي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه)

قال الحسن رضي الله عنه: عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها، وخافوا أن تُرد عليهم، إن المؤمن جمع إحساناً وخشيةً، والمنافق جمع إساءةً وأمناً.

قال أبو حفص: الخوف سراج في القلب، به يُبصر ما فيه من الخير والشر.

وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله تعالى، فإنك إذ خفته هربت إليه، فالخائف هارب من ربه إلى ربه.

قال أبو سليمان رحمه الله: ما فارق الخوف قلباً إلا خرب، وقال إبراهيم بن شيبان: إذا سكن الخوف القلب أحرق مواضع الشهوات منه وطرد الدنيا عنه.

-(٣٨)

والخوف ليس مقصوداً لذاته، بل مقصوداً لغيره قصد الوسائل، ولهذا يزول بزوال المخوف، فإن أهل الجنة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

والخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله.

أكثر ما تكون الهيبة أوقات المناجاة، وهي وقت تملُّق العبد ربه، وتضرعه بين يديه واستعطافه والثناء عليه بآلائه وأسمائه وأوصافه، أو مناجاته بكلامه.

القلب في سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطير جيد الطيران، ومتى قُطع الرأس مات الطائر، ومتى عدم الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر، ولكن السلف استحبوا أن يقوي في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف، هذه طريقة أبي سليمان وغيره، قال: ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإنه إذا كان الغالب عليه الرجاء فسد.

وقال غيره: أكمل الأحوال اعتدال الرجاء والخوف وغلبة الحبِّ، فالمحبة هي المركب، والرجاء حاد، والخوف سائق، والله الموصل بمنه وكرمه.

والخشية أخصُّ من الخوف، فإن الخشية للعلماء بالله، قال تعالى: ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ [فاطر:٢٨] فهي خوف مقرون بمعرفة، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إني أتقاكم لله وأشدكم له خشية)

-(٣٩)

منزلة الإشفاق:

قال رحمه الله: ومن منازل ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين ﴾: منزلة الإشفاق، قال تعالى: ﴿ الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون ﴾ [الأنبياء:٤٩] وقال تعالى: ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتسألون * قالوا إنا كُنّا قبل في أهلنا مشفقين * فمنَّ الله علينا ووقانا عذاب السموم ﴾ [الطور:٢٥-٢٧]الإشفاق رقة الخوف، وهو خوف برحمةٍ من الخائف لمن يخاف عليه، قال صاحب المنازل رحمه الله: "إشفاق على العمل: أن يصير إلى الضياع" أي يخاف على عمله أن يكون من الأعمال التي قال الله تعالى فيها: ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ [الفرقان:٢٣] وهي الأعمال التي كانت لغير الله، وعلى غيره أمره وسنة رسوله.

ويخاف أيضاً أن يضيع عمله في المستقبل، إما بتركه، وإما بمعاصٍ، تُغرقه وتُحيط به فيذهب ضائعاً. قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ أيودُّ أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعنابٍ تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمراتِ وأصابهُ الكبرُ وله ذرية ضُعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾ [البقرة:٢٦٦] قال الإمام البخاري رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال عمر رضي الله عنه يوماً لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : فيم ترون هذه الآية نزلت : ﴿أيودُّ أحدكم أن تكون له جنة ﴾ قالوا: الله أعلمُ، فغضب عمر، فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال عمر: يا ابن أخي! قل، ولا تحقر نفسك، قال ابن عباس: ضُربت مثلاً لعملٍ، قال عمر: أيُّ عمل، قال ابن عباس: لعملٍ، قال عمر: لرجل غني يعملُ بطاعة الله عز وجل، ثم بعث الله له الشيطان، فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله.

-(٤٠)

منزلة الخشوع

قال رحمه الله: ومن منازل ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين ﴾: منزلة الخشوع، قال تعالى: ﴿ ألم يأنِ للذين أمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ﴾ [الحديد:١٦] قال ابن مسعود رضي الله عنه: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الله استبطأ قلوب المؤمنين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن.

وقال تعالى: ﴿ قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ [المؤمنون:١] والخشوع في أصل اللغة: الانخفاض والذل والسكون، قال تعالى: ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن ﴾ [طه:١٠٨] أي: سكنت وذلت والخضوع.

والخضوع: قيام القلب بين يدي الرب تعالى بالخضوع والذلَّة والجمعية عليه.

وأجمع العارفون على أن الخشوع محله القلب، وثمرته على الجوارح، فهي تظهره.

منزلة الإخبات

قال رحمه الله: ومن منازل ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين ﴾: منزلة الإخبات، قال تعالى: ﴿ وبشر المخبتين ﴾ ثم كشف عن معناهم فقال: ﴿ الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ [الحج:٣٥] قال الكلبي: الرقيقة قلوبهم.

ومتى استقرت قدم العبد في منزلة الإخبات وتمكن فيها ارتفعت همته وعلت نفسه عن خطفات المدح والذم، فلا يفرح بمدح الناس ولا يحزن لذمهم.

والوقوف عند مدح الناس وذمهم علامة انقطاع القلب وخلوه من الله تعالى، وأنه لم تباشره روح محبته ومعرفته، ولم يذق حلاوة التعلق به والطمأنينة إليه.

-(٤١)

منزلة الزهد

قال رحمه الله: ومن منازل ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين ﴾: منزلة الزهد، قال الله تعالى: ﴿ ما عندكم ينفدُ وما عند الله باق ﴾ [النحل:٩٦] وقال: ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خير وأبقى ﴾ [الأعلى:١٦]

والقرآن مملوء من التزهيد في الدنيا والإخبار بخستها وقلتها وانقطاعها وسرعة فنائها، والترغيب في الآخرة والإخبار بشرفها ودوامها وسرعة إقبالها.

فإذا أراد الله بعبده خيراً أقام في قلبه شاهداً يعاين حقيقة الدنيا والآخرة، ويؤثر منهما ما هو أولى بالإيثار.

قال الجنيد: سمعت سرياً يقول: إن الله تعالى سلب الدنيا عن أوليائه، وحماها عن أصفيائه، وأخرجها من قلوب أهل وداده لأنه لم يرضيها لهم.

وقيل: الزهد في قوله تعالى: ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما أتاكم ﴾ [الحديد:٢٣] فالزاهد لا يفرح من الدنيا بموجود، ولا يأسف منها على مفقود.

وقال سفيان الثوري: الزهد في الدنيا قصر الأمل.

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: الزهد على ثلاثة أوجه:

ترك الحرام وهو زهد العوام

والثاني: ترك الفضول من الحلال، وهو زهد الخواص.

والثالث: ترك ما يشغل عن الله، وهو زهد العارفين

وهذا الكلام من الإمام أحمد...من أجمع الكلام، وهو يدل على أنه رضي الله عنه من هذا العلم بالمحل الأعلى، وقد شهد له الشافعي رحمه الله بإمامته في ثمانية أشياء أحدها الزُّهد.

-(٤٢)

والذي أجمع عليه العارفون أن الزهد سفر القلب من وطن الدنيا وأخذُه في منازل الآخرة، وعلى هذا صنف المتقدمون كتب الزهد كـ " الزهد " لعبدالله بن المبارك، وللإمام أحمد، ولوكيع، ولهناد بن السري، ولغيرهم.

ومن أحسن ما قيل في الزهد كلام الحسن أو غيره: " ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أُصبت بها أرغب منك فيها لو لم تصبك"

فهذا من أجمع كلامٍ في الزهد وأحسنه، وقد روي مرفوعاً.

كراهية مشاركة الفساق مواضع الرغبة في الدنيا:

قال رحمه الله: الفساق يزدحمون على مواضع الرغبة في الدنيا، ولتلك المواقف كظيظ من الزحام، فالزاهد يأنف من مشاركتهم في تلك المواقف ويرفع نفسه عنها لخسة شركائه فيها، كما قيل لبعضهم: ما الذي زهدك في الدنيا ؟ قال: قلة وفائها، وكثرة جفائها، وخسة شركة.

منزلة الورع

قال رحمه الله: ومن منازل ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين ﴾: منزلة الورع، وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم الورع في كلمة واحدةٍ فقال: (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) فهذا يعمُّ الترك لما لا يعني من الكلام والنظر والاستماع والبطش والمشي والفكر، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة فهذه الكلمة شافية في الورع.

قال يونس بن عبيد: الورع الخروج من كل شبهة، ومحاسبة النفس مع كل طرفة.

وقال بعض السلف: لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس.

وقال بعض الصحابة رضي الله عنهم: كنّا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن تقع في باب من الحرام.

فالعارف يترك كثيراً من المباح إبقاءً على صيانته، ولا سيما إذا كان ذلك المباح برزخاً بين الحلال والحرام، فإن بينهما برزخاً.

منزلة التبتل

قال رحمه الله: ومن منازل ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين ﴾: منزلة التبتل، قال الله تعالى: ﴿ واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً ﴾ [المزمل:٨] والتبتل : الانقطاع.

التبتل يجمع أمرين: اتصالاً وانفصالاً، لا يصحُّ إلا بهما، فالانفصال: انقطاع قلبه عن حظوظ النفس المزاحمة لمراد الرب منه، وعن التفات قلبه إلى ما سوى الله خوفاً منه، أو رغبةً فيه، أو مبالاةً وفكراً فيه بحيث يشغل قلبه عن الله تعالى، والاتصال لا يصحُّ إلا بعد هذا الانفصال، وهو اتصال القلب بالله وإقباله عليه وإقامة وجهه له حباً وخوفاً ورجاءً وإنابةً وتوكلاً.

ـ(٤٤)

منزلة الرجاء

قال رحمه الله: ومن منازل ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين ﴾: منزلة الرجاء، قال تعالى: ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ [الكهف: ١١٠]

والرجاء ثلاثة أنواع: نوعان محمودان، ونوع غرور مذموم.

فالأوَّلان: رجاءُ رجل عمل بطاعة الله على نور من الله فهو راج لثوابه، ورجل أذنب ثم تاب منه فهو راج لمغفرته.

والثالث: رجل متماد في التفريط والخطايا يرجو رحمة الله بلا عملٍ، فهذا هو الغرور والتمنِّي والرجاء الكاذب.

الرجاء ضروري للمريد والسالك العارف، ولو فارقه لحظةً لتلف أو كاد، فإنه دائر بين ذنب يرجو غفرانه، وعيب يرجو صلاحه، وعمل صالح يرجو قبوله، واستقامةٍ يرجو حصولها أو دوامها، وقربٍ من الله ومنزلة عنده يرجو وصوله إليها.

منزلة الرغبة

قال رحمه الله: ومن منازل ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين ﴾: منزلة الرغبة، قال الله تعالى: ﴿ ويدعوننا رغباً ورهباً ﴾ ل[الأنبياء: ٩٠]

والفرق بين الرجاء والرغبة أن الرجاء طمع والرغبة طلب، فهي ثمرة الرجاء، فإنه إذا رجا الشيء طلبه، والرغبة من الرجاء كالهرب من الخوف، فمن رجا شيئاً طلبه ورغب فيه، ومن خاف شيئاً هرب منه.

ـ(٤٥)

منزلة الرعاية

قال رحمه الله: ومن منازل ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين ﴾: منزلة الرعاية، وهي مراعاة العلم وحفظه بالعمل، ومراعاة العمل بالإحسان والإخلاص وحفظه من المفسدات، ومراعاة الحال بالموافقة وحفظه بقطع التفرُّق، فالرعاية صيانة وحفظ.

قد قيل: علامة رضا الله عنك سخطك على نفسك، وعلامة قبول احتقاره واستقلاله وصغره في قلبك، حتى إن العارف ليستغفر الله عقيب طاعته.

منزلة المراقبة

قال رحمه الله: ومن منازل ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين ﴾: منزلة المراقبة، قال الله تعالى: ﴿ واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ﴾ [البقرة:٢٣٥]

المراقبة: دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق سبحانه على ظاهره وباطنه، فاستدامته لهذا العلم واليقين هي المراقبة.

قال أبو حفص لأبي عثمان النيسابوري رحمهما الله: إذا جلست للناس فكن واعظاً لقلبك ونفسك، ولا يغرنك اجتماعهم عليك، فإنهم يراقبون ظاهرك والله يراقب باطنك.

منزلة تعظيم حرمات الله

قال رحمه الله: ومن منازل ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين ﴾: منزلة تعظيم حرمات الله، قال تعالى: ﴿ ومن يعظم حرمات الله فهو خير الله عند ربه ﴾ [الحج:٣٠]

والحرمات..ما يجب احترامه وحفظه من الحقوق والأشخاص والأزمنة والأماكن، فتعظيمها توفيتها حقها وحفظها من الإضاعة.

(٤٦)-

منزلة الإخلاص

قال رحمه الله: ومن منازل ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين ﴾: منزلة الإخلاص، قال تعالى: ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ [البينة: ٥] وقال النبي صلى الله عليه وسلم لسعدٍ: (إنك لن تُخلف فتعمل عملاً تبتغي به وجه الله إلا ازدادت به درجة ورفعة)

العامل...الذي يخلِّصه من رؤية عمله: مشاهدته لمنة الله عليه وفضله وتوفيقه له، وأنه بالله لا بنفسه، وأنه إنما أوجب عمله بمشيئة الله لا مشيئته هو، كما قال تعالى: ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله ﴾ [التكوير: ٢٩]

والذي يخلصه من رضاه بعمله وسكونه إليه أمران:

أحدهما: مطالعة عيوبه وآفاته وتقصيره فيه، وما فيه من حظِّ النفس ونصيب الشيطان، فقلَّ عمل من الأعمال إلا والشيطان فيه نصيب وإن قلَّ، وللنفس فيه حظ، سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن التفات الرجل في صلاته فقال: (هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد)

الثاني: علمه بما يستحقه الربُّ جلَّ جلاله من حقوق العبودية وآدابها الظاهرة والباطنة وشروطها، وأن العبد أضعف وأقلُّ من أن يوفيها حقَّها وأن يرضى بها لربه، فالعارف لا يرضى بشيءٍ من عمله لربه، ولا يرضى نفسه لله تعالى طرفة عينٍ، ويستحيي من مقابلة الله بعمله، فسوء ظنه بنفسه وعمله وبغضه لها، وكراهته لأنفاسه وصعودها إلى الله يحول بينه وبين الرضا بعمله والرضا عن نفسه.

قال بعضهم: آفة العبد رضاه عن نفسه، ومن نظر إلى نفسه باستحسان شيءٍ منها فقد أهلكها، ومن لم يتهم نفسه على دوام الأوقات فهو مغرور.

-(٤٧)

منزلة الاستقامة

قال رحمه الله: ومن منازل ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين ﴾: منزلة الاستقامة، قال الله تعالى: ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ﴾ [فصلت: ٣٠]

والمطلوب من العبد: الاستقامة وهي السداد، فإن لم يقدر عليها فالمقاربة، فإن نزل عنها فالتفريط والإضاعة،

والسلف رضي الله عنهم يذكرون هذين الأصلين كثيراً، وهما: الاقتصاد في الأعمال، والاعتصام بالسنة، فإن الشيطان يشمُّ قلب العبد ويختبره، فإن رأى فيه داعية للبدعة وإعراضاً عن كمال الانقياد للسنة أخرجه عن الاعتصام بها، وإن رأى فيه حرصاً عليها وشدة طلبٍ لها لم يظفر به من باب اقتطاعه عنها، فأمره بالاجتهاد والجور على النفس ومجاوزة حد الاقتصاد فيها، قائلاً له: إن هذا خير وطاعة، والزيادة والاجتهاد فيها أولى، فلا تفتر مع أهل الفتور، ولا تنم مع أهل النوم، فلا يزال يحثه ويحرضه حتى يخرجه عن الاقتصاد فيها، فيخرجه عن حدها، كما أن الأول خارج عن هذا الحدّ، فكذا هذا الآخر خارج عن الحدِّ الآخر، وهذا حال الخوارج الذين يحقر أهل الاستقامة صلاتهم مع صلاتهم، وصيامهم مع صيامهم، وقراءتهم مع قراءتهم، وكلا الأمرين خروج عن السنة إلى البدعة، لكن هذا بدعة التفريط والإضاعة، والآخر إلى بدعة المجاوزة والإسراف.

فكل الخير في اجتهاد باقتصاد مقرون بالاتباع، كما قال بعض الصحابة رضي الله عنهم: اقتصاد في سبيل وسنةٍ خير من اجتهاد في خلاف سبيلٍ وسنة، فاحرصوا أن تكون أعمالكم على منهاج الأنبياء وسنتهم.

(٤٨)ـ

منزلة التوكل

قال رحمه الله: ومن منازل ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين ﴾: منزلة التوكل، قال الله تعالى: ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ [المائدة:٢٣] وقال: ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ [آل عمران:١٢٢] وقال ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ [الطلاق:٣] التوكل نصف الدين، ونصفه الثاني الإنابة، فإن الدين استعانة وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة.

ومنزلته أوسع المنازل وأجمعها، ولا تزال معمورة بالنازلين لسعة متعلق التوكل، وكثرة حوائج العالمين، وعموم التوكل، ووقوعه من المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، والطيور والوحش والبهائم.

التوكل حال مركبة من مجموعة أمورٍ، لا تتم حقيقة التوكل إلا بها

فأول ذلك: معرفة بالرب وصفاته من قدرته، وكفايته، وقيوميته، وانتهاء الأمور إلى علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته، وهذه المعرفة أول درجةٍ يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل.

الدرجة الثانية: إثبات الأسباب والمسببات، فإن من نفاها فتوكله مدخول...ونفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل البتة...فالتوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب، ويندفع بها المكروه، ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب، وقطع علاقة القلب بها، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها، وحال بدنه قيامه بها.

الدرجة الثالثة: رسوخ القلب في مقام التوحيد، فإنه لا يستقيم توكل العبد حتى يصحَّ له توحيده، بل حقيقة التوكل توحيد القلب، فما دامت فيه علائق الشرك فتوكله معلول مدخول.

ـ(٤٩)

الدرجة الرابعة: اعتماد القلب على الله واستناده إليه وسكونه إليه، بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب، ولا سكون إليها، بل يخلع السكون إليها من قلبه، ويلبس السكون إلى مسبِّبها.

الدرجة الخامسة: حسن الظن بالله تعالى، فعلى قدر حسن ظنك به ورجائك له يكون توكلك عليه.

الدرجة السادسة: استسلام القلب له، وانجذاب دواعيه كلها إليه، وقطع منازعاته.

الدرجة السابعة: التفويض، وهو روح التوكل ولبُّه وحقيقته، وهو إلقاء أموره كلها إلى الله، وإنزالها به طلباً واختياراً، لا كرهاً واضطراراً.

فإذا وضع قدمه في هذه الدرجة، انتقل منها إلى درجة الرضا، وهي ثمرة التوكل، ومن فسر التوكل بها فإنما فسَّره بأجلِّ ثمراته وأعظم فوائده، فإنه إذا توكل حق التوكل رضي بما يفعله وكيله.

فباستكمال هذه الدرجات الثمان يستكمل العبد مقام التوكل، وتثبت قدمُه فيه.

ـ(٥٠)ـ

منزلة الثقة بالله

قال رحمه الله: ومن منازل ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين ﴾: منزلة الثقة بالله.

وصدر الباب بقوله تعالى لأم موسى: ﴿ فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني ﴾ [القصص:٧] فإن فعلها هذا هو عين ثقتها بالله، إذ لولا كمال ثقتها بربها لما ألقت ولدها وفلذة كبدها في تيار الماء، تتلاعب به أمواجه وجرياته إلى حيث ينتهي أو يقف.

منزلة التسليم

قال رحمه الله: ومن منازل ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين ﴾: منزلة التسليم، وهي نوعان: تسليم لحكمه الديني الأمري، وتسليم لحكمه الكوني القدري.

فإما الأول فهو تسليم المؤمنين العافين، قال تعالى: ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾ [النساء: ٦٥] فهذه ثلاث مراتب: التحكيم، وسعة الصدر بانتفاء الحرج، والتسليم.

وأما التسليم للحكم الكوني فمزلة أقدام، ومضلة أفهام، وحيَّر الأنام، وأوقع الخصام، وهي مسألة الرضا بالقضاء، وقد تقدم الكلام عليها بما فيه كفاية، وبيننا أن التسليم للقضاء يحمد إذا لم يؤمر العبد بمنازعته ودفعه، ولم يقدر على ذلك، كالمصائب التي لا قدرة له على دفعها، وأما الأحكام التي أُمِر بدفعها، فلا يجوز التسليم إليها، بل العبودية مدافعتها بأحكامٍ أخر أحبَّ إلى الله منها.

(٥١)ـ

منزلة الصبر

قال رحمه الله: ومن منازل ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين ﴾: منزلة الصبر.

قال الإمام أحمد: ذكر الله الصبر في القرآن في نحوٍ من تسعين موضعاً.

وهو واجب بإجماع الأمَّة، وهو نصف الإيمان، فإن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر.

الصبر: حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش،

وهو...صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على امتحان الله

وأمر أحب لخلق إليه بالصبر لحكمه، وأخبر أن صبره به، وأثنى على الصابرين أحسن الثناء، وضمن لهم أعظم الجزاء، وجعل أجر غيرهم محسوباً وأجرهم بغير حساب.

وقرن الصبر بمقامات الإسلام والإيمان والإحسان...فجعله قرين التوكل واليقين، والإيمان، والأعمال، والتقوى.

أنواع الصبر:

قال رحمه الله: وهو ثلاثة أنواع: صبر بالله، وصبر لله، وصبر مع لله.

فالأول الاستعانة به ورؤية أنه هو المصبِّر وأن صبر العبد بربه لا بنفسه كما قال تعالى ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله ﴾ [النحل:١٢٧] يعني إن لم يصبرك هو لم تصبر.

الثاني: أن يكون الباعث على الصبر محبة الله وإرادة وجهه والتقرب إليه، لا إظهار قوة النفس، والاستحماد إلى الخلق، وغير ذلك من الأغراض.

ـ(٥٢)

والثالث: دوران العبد مع مراد الله الديني منه، ومع أحكامه الدينية، صابراً نفسه معها، سائراً بسيرها، مقيماً بإقامتها، يتوجه معها أين توجهت ركائبها، وينزل معها أين استقلت مضاربها، فهذا معنى كونه صابراً مع الله، أي قد جعل نفسه وقفاً على أوامره ومحابه، وهو أشدُّ أنواع الصبر وأصعبها، وهو صبر الصدِّيقين.

الصبر والمحبة:

الصبر من آكد المنازل في طريق المحبة، وألزمها للمحبين،...وبه يعلم صحيح المحبة من معلولها، وصادقها من كاذبها، فإن بقوة الصبر على المكاره في مراد المحبوب يُعلم صحّة محبته.

ومن ها هنا كانت محبة أكثر الناس كاذبة، لأنهم كلهم ادعوا محبة الله، فحين امتحنهم بالمكاره انخلعوا عن حقيقة المحبة، ولم يثبت معه إلا الصابرون، فلولا تحمل المشاق وتجشُّم المكاره بالصبر لما ثبت صحة محبتهم

وتبين بذلك أن أعظمهم محبة أشدُّهم صبراً، ولهذا وصف الله بالصبر خاصة أحبابه وأوليائه، فقال عن حبيبه أيوب: ﴿ إنا وجدناه صابراً ﴾ ثم أثنى عليه فقال: ﴿ نعم العبد إنه أواب ﴾ [ص:٤٤]

للصبر عن المعصية سببين وفائدتين:

قال رحمه الله: للصبر عن المعصية سببين وفائدتين:

أما السببان: فالخوف من لحوق الوعيد المترتب عليها، والثاني: الحياء من الرب تعالى أن يستعان على معاصيه بنعمه، وأن يبارز بالعظائم.

وأما الفائدتان: فالإبقاء على الإيمان، والحذر من الحرام.

ـ(٥٣)

الصبر على الطاعة بثلاثة أشياء:

قال رحمه الله: ذكر الشيخ أن الصبر في هذه الدرجة بثلاثة أشياء: دوام الطاعة، والإخلاص فيها، ووقوعها على مقتضى العلم.

فإن الطاعة تتخلف من فوات واحدٍ من هذه الثلاثة، فإنه إن لم يحافظ عليها دواماً عطَّلها، وإن حافظ عليها دواماً عرض لها آفتان.

إحداهما: ترك الإخلاص فيها، بأن يكون الباعث عليها غير وجه الله وإرادته والتقرب إليه.فحفظها من هذه الآفة برعاية الإخلاص.

الثانية: أن لا تكون مطابقة للعلم، بحيث لا تكون على اتباع السنة، فحفظها من هذه الآفة بتجريد المتابعة، كما أن حفظها من تلك بتجريد القصد والإرادة.

ثلاثة أشياء تبعث على الصبر على البلاء:

قال رحمه الله: هذه ثلاثة أشياء تبعث على الصبر على البلاء:

أحدها: ملاحظة حسن الجزاء، وعلى حسب ملاحظته والوثوق به ومطالعته يخفُّ حملُ البلاء لشهود العوض.

الثاني: انتظار روح الفرج، يعني راحته ونسيمه ولذته، فإن انتظاره ومطالعته وترقُّبه يخفف حمل المشقة، ولا سيما عند قوة الرجاء والقطع بالفرج.

الثالث: تهوين البلية بأمرين:

أحدهما: أن يعدَّ نعم الله عليه وأياديه عنده، فإن عجز عن عدِّها وأيس من حصرها، هان عليه ما هو فيه من البلاء، ورآه بالنسبة إلى أيادي الله ونعمه كقطرةٍ من بحر.

الثاني: أن يذكر سوالف النِّعم التي أنعم الله بها عليه، فهذا يتعلق بالماضي، وتعداد أيادي المنن يتعلق بالحال.

ـ(٥٤)

منزلة الرضا

قال رحمه الله: ومن منازل ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين ﴾: منزلة الرضا.

وقد أجمع العلماء على أنه مستحب مؤكد استحبابه واختلفوا في وجوبه على قولين

قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ رسولاً) وقال: (من قال حين يسمع النداء: رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، غفرت له ذنوبه)

وهذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين، وإليهما ينتهي، وقد تضمنا الرضا بربوبيته سبحانه وإلهيته، والرضا برسوله والانقياد له، والرضا بدينه والتسليم له، ومن اجتمعت له هذه الأربعة فهو الصديق حقاً، وهي سهله بالدعوى واللسان، ومن أصعب الأمور عند الحقيقة والامتحان، ولا سيما إذا جاء ما يخالف هوى النفس ومرادها من ذلك، تبين أن الرضا كان على لسانه لا على حاله.

فالرضا بإلهيته يتضمن الرضا بمحبته وحده، وخوفه، ورجائه، والإنابة إليه، والتبتل إليه...وذلك يتضمن عبادته والإخلاص له.

والرضا بربوبيته يتضمن الرضا بتدبيره لعبده، ويتضمن إفراده بالتوكل عليه، والاستعانة به، والثقة فيه، والاعتماد عليه، وأن يكون راضياً بكل ما يفعله به.

وأما الرضا بنبيه رسولاً، فيتضمن كمال الانقياد له، والتسليم المطلق إليه، بحيث يكون أولى به من نفسه، فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته، ولا يحاكم إلا إليه، ولا يرضى بحكم غيره البتة.

وأما الرضا بدينه فإذا قال أو حكم أو أمر أو نهى رضي كلَّ الرضا، ولم يبق في قلبه حرج من حكمه، وسلم له تسليماً، ولو كان مخالفاً لمراد نفسه وهواها.

ـ(٥٥)

التألم وكراهة النفس للمقضي لا ينافي الرضا:

قال رحمه الله: وليس من شرط الرضا أن لا يحس بالألم والمكاره، بل أن لا يعترض على الحكم ولا يتسخطه، ولهذا أشكل على بعض الناس الرضا بالمكروه، وطعنوا فيه، وقالوا: هذا ممتنع على الطبيعة، وإنما هو الصبر، وإلا فكيف يجتمع الرضا والكراهة وهما ضدان؟

والصواب: أنه لا تناقض بينهما، وأن وجود التألم وكراهة النفس له لا ينافي الرضا، كرضا المريض شرب الدواء الكريه، ورضا الصائم في اليوم الشديد الحر بما يناله من ألم الجوع والظمأ، ورضا المجاهد بما يحصل في سبيل الله من ألم الجراح، وغيرها.

ثمرة الرضا: الفرح والسرور بالرب تبارك وتعالى:

قال رحمه الله: وثمرة الرضا: الفرح والسرور بالرب تبارك وتعالى، ورأيت شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه– في المنام، وكأني ذكرت له شيئاً من أعمال القلوب وأخذت في تعظيمه ومنفعته، لا أذكره الآن، فقال: أما أنا فطريقتي: الفرح بالله والسرور به، أو نحو هذا من العبارة، وهكذا كانت حاله في الحياة، يبدو ذلك على ظاهره، وينادي به عليه حاله.

من أوجه استواء النعمة والبلية:

قال رحمه اله: وإنما تستوي النعمة والبلية عنده في الرضا بهما لوجهٍ:

أحدها: أنه جازم بأنه لا تبديل لكلمات الله ولا راد لحكمه، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشاء لم يكن، فهو يعلم أن كلاً من البلية والنعمة بقضاءٍ سابقٍ وقدرٍ حتم.

الثاني: أنه محب، والمحب الصادق من رضي بما يعامله به حبيبه.

الثالث: أنه جاهل بعواقب الأمور، وسيده أعلم بمصلحته وما ينفعه.

ـ(٥٦)

الرابع: علمه بأنه إذا رضي به انقلب في حقه نعمة ومنحة، وخفَّ عليه حمله وأُعين عليه، وإذا سخطه تضاعف عليه ثقله وكلُّه، ولم يزدد إلا شدَّة.

الخامس: أن الرضا يوجب له الطمأنينة وبرد القلب وسكونه وقراره، والسخط يوجب اضطراب قلبه وريبه وانزعاجه وعدم قراره.

السادس: أن يعلم أن رضاه عن ربه في جميع الحالات يثمر له رضا ربه عنه، فإذا رضي عنه بالقليل من الرزق رضي ربه عنه بالقليل من العمل، وإذا رضي عنه في جميع الحالات واستوت عنده وجده أسرع شيء إلى رضاه إذا ترضاه وتملقه.

السابع: أن يعلم أن أعظم راحته وسروره ونعيمه في الرضا عن ربه في جميع الحالات، فإن الرضا باب الله الأعظم، ومستراح العارفين، وجنة في الدنيا، فجدير بمن نصح نفسه أن تشتد رغبته فيه، ولا يستبدل بغيره منه.

الثامن: أنَّ من ملأ قلبه من الرضا بالقدر، ملأ الله صدره غنى وأمناً وقناعةً، وفرغ قلبه لمحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، ومن فاته حظُّه من الرضا، امتلأ قلبه بضد ذلك، واشتغل عمَّا فيه سعادته وفلاحه.

التاسع: أن الرضا يُنزل عليه السكينة التي لا أنفع له منها، ومتى نزلت السكينة استقام، وصلحت أحواله وصلح باله والسخط يُبعده منها بحسب قلته وكثرته وإذا ترحلت عنه السكينة ترحل عنه السرور والأمن والدعة والراحة وطيب العيش.

العاشر: أن الرضا يفتح له باب السلامة، فيجعل قلبه سليماً نقياً من الغش والدغل، والغل، ولا ينجو من عذاب الله إلا من أتى الله بقلب سليمٍ...وكلما كان أشدَّ رضا كان قلبه أسلم، فالخبث والدغل والغش قرين السخط، وسلامة القلب وبره ونصحه قرين الرضا، وكذلك الحسد هو من ثمرات السخط.

(٥٧)ـ

الحادي عشر: أن الرضا بالمقدور من سعادة ابن آدم، وسخطه من شقاوته، كما في المسند والترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من سعادة ابن آدم استخارة الله عز وجل، ومن سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله، ومن شقوة ابن آدم سخطه بما قضى الله، ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارة الله) فالرضا بالقضاء من أسباب السعادة، والتسخط على القضاء من أسباب الشقاوة.

الثاني عشر: أن الرضا ينفي عنه آفات الحرص..على الدنيا، وذلك رأس كلَّ خطيئة، وأصلُ كل بليَّة، وأساسُ كلِّ رزية، فرضاه عن ربه في جميع الحالات ينفي عنه هذه الآفات.

الثالث عشر: أنَّ كلَّ قدرٍ يكرهه العبد ولا يلائمه لا يخلو أن يكون عقوبة على ذنب، فهو دواء لمرضٍ لولا تدارك الحكيم إياه بالدواء لترامى بالمريض إلى الهلاك، أو يكون سبباً لنعمةٍ لا تنال إلا بذاك المكروه، فالمكروه ينقطع ويتلاشى، وما ترتب عليه من النعمة دائم لا ينقطع، فإذا شهد العبد هذين الأمرين انفتح له باب الرضا عن ربه في كل ما يقضيه ويقدره.

الرابع عشر: أن السخط باب الهم..والحزن، وشتات القلب، والرضا يفرغ قلبه ويثقلُ همه وغمه فيتفرغ لعبادة ربه بقلبٍ خفيفٍ من أثقال الدنيا وهمومها وغمومها

الخامس عشر: أن الرضا يثمر الشكر، الذي هو من أعلى مقامات الإيمان، بل هو حقيقة الإيمان، والسخط يثمر ضده، وهو كفر النعم...فإذا رضي عن ربه في جميع الحالات، أوجب له ذلك شكره، فيكون من الراضين الشاكرين، وإذا فاته الرضا كان من الساخطين، وسلك سبيل الكافرين.

(٥٨)-

السادس عشر: أن يعلم أن منع الله سبحانه لعبده المؤمن به المحب له عطاء، وابتلاه إياه عافية...فإنه سبحانه لا يقضي لعبده المؤمن قضاء إلا كان خيراً له، ساءه ذلك القضاء أو

سره، فقضاؤه لعبده المؤمن عطاء وإن كان في صورة المنع، ونعمة وإن كان في صورة محنة، وعافية وإن كان في صورة بليةٍ.

ولكن لجهل العبد وظلمه لا يعدُّ العطاء والنِّعمة والعافية إلا ما التذَّ به في العاجل، وكان ملائماً لطبعه، ولو رزق من المعرفة حظّاً وافراً لعدَّ نعمة الله فيما يكرهه أعظم من نعمته فيما يحبّه..وقد قال تعالى: ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ﴾ [البقرة:٢١٦] وقال بعض العارفين: ارض عن الله في جميع ما يفعله بك، فإنه ما منعك إلا ليعطيك، ولا ابتلاك إلا ليعافيك، ولا أمرضك إلا ليشفيك، ولا أماتك إلا ليحييك، فإياك أن تفارق الرضا عنه طرفة عين فتسقط من عينه.

السابع عشر: أن الرضا يثمر سرور القلب بالمقدور في جميع الأمور، وطيب النفس وسكونها في كلِّ حالٍ، وطمأنينة القلب عند كل مفزعٍ مهلع من أمور الدنيا، وبرد القناعة، واغتباط العبد بقسمه من ربه، وفرحه بقيام مولاه عليه، واستسلامه لمولاه في كلَّ شيءٍ، ورضاه منه بما يجريه عليه، تسليمه له الأحكام والقضايا، واعتقاد حسن تدبيره وكمال حكمته، ويُذهب عنه شكوى ربه إلى غيره وتبرمه بأقضيته.

وفي أثر إلهي: ما لأوليائي والهم والدنيا ؟ إن الهمَّ يُذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم.

فالإيمان بالقدر والرضا به يُذهب عن العبد الهمَّ والغمَّ والحزن.

الثامن عشر: أن الشيطان إنما يظفر بالإنسان غالباً عند السخط والشهوة، فهناك يصطاده، ولا سيما إذا استحكم سخطه، فإنه يقول ما لا يرضي الربَّ، ويفعل ما لا يرضيه، وينوي ما لا يرضيه.

ـ(٥٩)

منزلة الشكر

قال رحمه الله: ومن منازل ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين ﴾: منزلة الشكر، وهي من أعلى المنازل، وهي فوق منزلة الرضا، فإنه يتضمن الرضا وزيادة.

وهو نصف الإيمان..والإيمان نصفان: نصف شكر، ونصف صبر.

وقد أمر الله به ونهى عن ضده، وأثنى على أهله، ووصف به خواص خلقه، وجعل غاية خلقه وأمره، ووعد أهله بأحسن جزائه، وجعله سبباً للمزيد من فضله، وحارساً وحافظاً لنعمته.

وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته، واشتق لهم اسماً من أسمائه، فإنه سبحانه هو الشكور.

قال تعالى: ﴿ واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ [البقرة:١٥٢]

وقال عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿ إن إبراهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين * شاكراً لأنعمه ﴾ وقال عن نوح عليه السلام: ﴿ إنه كان عبداً شكوراً ﴾ [الإسراء:٣]

وقال: ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ [النحل:٧٨]

وقال: ﴿ وسيجزي الله الشاكرين ﴾ [آل عمران:١٤٤]

وقال: ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾ [إبراهيم:٧]

وقال: ﴿ إن في ذلك لآياتٍ لكل صبار شكور ﴾ [إبراهيم:٥]

وقلة أهله في العاملين تدلُّ على أنهم هم خواصه، كقوله: ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ [سبأ:١٣]

-(٦٠)-

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قام حتى تورمت قدماه، فقيل له: تفعل ذلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال: (أفلا أكون عبداً شكوراً ؟)

وقال لمعاذٍ: (والله يا معاذ إني لأحبك، فلا تنس أن تقول في دبر كل صلاةٍ: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)

والشكر مبني على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبُّه له، واعترافه بنعمته، والثناء عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره.

فهذه الخمسة هي أساس الشكر، وبناؤه عليها، فمتى عدم منها واحدة اختل من قواعد الشكر قاعدة.

فالشكر يكون بالقلب خضوعاً واستكانةً، وباللسان ثناءً واعترافاً، وبالجوارح طاعةً وانقياداً.

-(٦١)

منزلة الحياء

قال رحمه الله: ومن منازل ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين ﴾: منزلة الحياء.

في الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ برجل وهو يعظ أخاه في الحياء، فقال: (دعه، فإن الحياء من الإيمان)

وفيهما عن عمران بن الحصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الحياء لا يأتي إلا بخير)

وفيهما عن أبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم : (الإيمان بضع وسبعون – أو: بضع وستون – شعبة، فأفضلها: قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان)

وفيهما عن أبي سعيد رضي الله عنه: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه.

وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم : (إنما مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستحي فاصنع ما شئت) وفي هذا قولان:

أحدهما: أنه أمر تهديد، ومعناه، أي: من لم يستحي صنع ما شاء.

والثاني: أنه أمر أباحة، أي: انظر إلى الفعل الذي تريد أن تفعله، فإن كان مما لا يستحيي منه فافعله، والأول أصحُّ، وهو قول الأكثرين.

والحياء من الحياة...وعلى حسب حياة القلب يكون فيه قوة خُلُق الحياء، وقلَّة الحياء من موت القلب والروح، فكلما كان القلب أحيى كان الحياء أتمَّ.

-(٦٢)

منزلة الصدق

قال رحمه الله: ومن منازل ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين ﴾: منزلة الصدق، وهي منزلة القوم الأعظم الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين، والطريق الأقوم الذي من لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين.

وبه تميز أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيران.

وهو سيف الله في أرضه الذي ما وضع على شيءٍ إلا قطعه، ولا واجه باطلاً إلا أرداه وصرعه، من صال به لم ترد صولته، ومن نطق به علت على الخصوم كلمته.

وقد أمر الله سبحانه أهل الإيمان أن يكونوا مع الصادقين، وخصَّ المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فقال: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ [التوبة:١١٩] وقال: ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﴾ فهم أهل الرفيق الأعلى، ﴿ وحسن أولئك رفيقاً ﴾ [النساء:٦٩]

وأخبر سبحانه أنه في يوم القيامة لا ينفع العبد وينجيه من عذابه إلا صدقه، قال الله تعالى: ﴿ هذا يوم ينفعُ الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم ﴾ [المائدة:١١٩] وقال: ﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المفلحون * لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين * ليكفر عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون ﴾ [الزمر: ٣٣-٣٥] فالذي جاء بالصدق هو من شأنه الصدق في قوله وعمله وحاله، فالصّدق: في هذه الثلاثة.

-(٦٣)

ومن علامات الصدق: طمأنينة القلب إليه، ومن علامات الكذب: حصول الريبة، كما في الترمذي مرفوعاً من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما: (الصدق طمأنينة، والكذب ريبة)

الصادق مطلوبه: رضا ربه، وتنفيذ أوامره، وتتبع محابه، فهو متقلب فيها يسير معها أين توجهت ركائبها، ويستقل معها أنى استقلت مضاربها، فبينا هو في صلاة إذ رأيته في ذكرٍ، ثم في غزوةٍ، ثم في حجٍ، ثم في إحسان للخلق بالتعليم وغيره من أنواع النفع، ثم أمرٍ في معروفٍ، أو نهي عن منكرٍ، أو قيام بسببٍ فيه عمارة للدين والدنيا.

حمل الصدق كحمل الجبال الرواسي، لا يطيقه إلا أصحاب العزائم.

-(٦٤)

منزلة الإيثار

قال رحمه الله: ومن منازل ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين ﴾: منزلة الإيثار، قال الله تعالى في مدح أهله: ﴿ ويُؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شُحَّ نفسه فأُولئك هم المفلحون ﴾ [الحشر:٩]

فالإيثار ضدّ الشُّحِّ، فإن المؤثر على نفسه تارك لما هو محتاج إليه، والشحيح حريص على ما ليس بيده، فإذا حصل بيده شحَّ عليه وبَخِلَ بإخراجه، فالخل ثمرة الشُّحِّ، والشُّحُّ يأمر بالبخل، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إياكم والشُّحَّ، فإن الشُّح أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا)

فالبخيل: من أجاب داعي الشُّحِّ، والمُؤثر: من أجاب داعي الجود.

مراتب الجود:

قال رحمه الله: والجود عشر مرتب:

إحداها: الجود بالنفس، وهو أعلى المراتب.

الثانية: الجود بالرئاسة..والإيثار في قضاء حاجة الملتمس.

الثالثة: الجود بالعلم وبذله، وهو أعلى مرتب الجود، والجود به أفضل من الجود بالمال، لأن العلم أشرف من المال.

الرابعة: الجود بالنفع بالجاه، كالشفاعة والمشي مع الرجل إلى ذي سلطان ونحوه.

الخامسة: الجود بالصبر والاحتمال والإغضاء، وهذه مرتبة شريفة من مراتبه...ولا يقدر عليها إلا النفوس الكبار.

ـ(٦٥)

السادسة:الجود براحته ورفاهيته وإجمام نفسه فيجود بها نصباً وكداً في مصلحة غيره

السابعة: الجود بنفع البدن على اختلاف أنواعه.

الثامنة: الجود بالعرض، كجود أبي ضمضم من الصحابة، رضي الله عنه، كان إذا أصبح قال: اللهم إنه لا مال لي فأتصدق به الناس، وقد تصدقت عليهم بعرضي، فمن شتمني أو قذفني فهم في حلٍّ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (من يستطيع منكم أن يكون كأبي ضمضم) وفي هذا الجود من سلامة الصدر، وراحة القلب، والتخلص من معاداة الخلق.

التاسعة: الجود بالخُلُق والبشر والبسطة، وهو فوق الجود بالصبر والاحتمال والعفو، وهو الذي بلغ بصاحبه درجة الصائم القائم، وهو أثقل ما يوضع في الميزان،،والعبد لا يمكنه أن يسعَ الناس بماله، ويُمكنُه أن يسعهم بخُلقه واحتماله.

العاشرة: الجود بترفيه ما في أيدي الناس عليهم، فلا يلتفت إليه، ولا يتشرف له بقلبه، ولا يتعرض له بحاله ولا لسانه.

ولكل مرتبة من مراتب الجود مزية وتأثير خاص في القلب والحال، والله سبحانه قد ضمن المزيد للجواد، والإتلاف على الممسك، والله المستعان.

ما يعين على الإيثار:

قال رحمه الله: ما يُعين على الإيثار ويبعث عليه..ثلاثة أشياء:

تعظيم الحقوق، فإن من عظمت الحقوق عنده قام بواجبها، ورعاها حقَّ رعايتها.

الثاني: مقتُ الشُّحِّ، فإنه إذا مقته وأبغضه التزم الإيثار.

الثالث: الرغبة في مكارم الأخلاق.

ـ(٦٦)

إيثار رضا الله عز وجل وعاقبة ذلك:

قال رحمه الله: إيثار رضا الله عز وجل على غيره: هو أن يريد ويفعل ما فيه مرضاته، ولو أغضب الخلق، وهذه هي درجة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأعلاها لأولى العزم منهم، وأعلاها لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فإنه قاوم العالم كله، وتجرد للدعوة إلى الله، واحتمل عداوة القريب والبعيد في الله تعالى، وآثر رضا الله على الخلق من كل وجهٍ، ويم يأخذه في إيثار رضاه لومة لائم...وما آثر عبد مرضاة الله على مرضاة الخلق، وتحمل ثقل ذلك ومُؤمنته، وصبر على محنته إلا أنشأ الله من تلك المحنة والمُؤنة نعمةً ومسرّة ومعونةً بقدر ما تحمله من مرضاته، فانقلبت مخاوفه أماناً، ومظانُّ عطبه نجاة، وتعبه راحةً، ومؤمنه معونةً، وبليته نعمةً، ومحنته منحةً، وسخطه رضا، فيا خيبة المتخلفين، ويا ذلة المتهيبين.

سنة الله عز وجل فيمن آثر مرضاة الخلق على مرضاته:

قال رحمه الله: قد جرت سنة الله – التي لا تبديل لها – أن من آثر مرضاة الخلق على مرضاته: أن يسخط عليه من آثر رضاه، ويخذله من جهته، ويجعل محنته على يديه، فيعود حامده ذاماً، ومن آثر مرضاته...فلا على مقصوده منهم حصل، ولا إلى ثواب مرضاة ربه وصل، وهذا أعجز الخلق وأحمقهم.

(٦٧)-

منزلة الخُلُق

قال رحمه الله: ومن منازل ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين ﴾: منزلة الخُلُق، قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ وإنك لعلى خُلُق عظيم ﴾ [القلم:٤] وقد جمع الله له مكارم الأخلاق في قوله: ﴿ خُذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ [الأعراف:١٩٩]وقد قيل إنُّ أحسن الخلق بذل الندى وكفُّ الأذى واحتمال الأذى

أركان حسن الخُلُق:

قال رحمه الله: وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل.

فالصبر: يحمله على الاحتمال، وكظم الغيظ، وكف الأذى، والحلم والأناة والرفق، وعدم الطيش والعجلة.

والعفة:: تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل، وتحمله على الحياء وهو رأس كل خير، وتمنعه من الفحش، والبخل، والكذب، والغيبة، والنميمة.

والشجاعة: تحمله على عزة النفس، وإيثار معالي الأخلاق والشِّيم، وعلى البذل والندى الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته، وتحمله على كظم الغيظ والحلم، فإنه بقوة نفسه وشجاعتها أمسك عنانها، وكبحها بلجامها عن التسرُّع والبطش.

العدل: يحمله على اعتدال أخلاقه، وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط، فيحمله على خلق الجود والسخاء الذي هو توسط بين الإمساك والإسراف والتبذير، وعلى خلق الحياء الذي هو توسط بين الذُّلِّ والقِحة، وعلى خلق الشجاعة الذي هو توسط بين الجبن والتهور.

-(٦٨)

أركان الأخلاق السافلة:

قال رحمه الله: ومنشأ جميع الأخلاق السافلة وبناؤها على أربعة أركان: الجهل، والظلم، والشهوة، والغضب.

فالجهل: يُريه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن، والكمال نقصاً والنقص كمالاً.

والظلم: يحمله على وضع الشيء في غير موضعه، فيغضب في موضع الرضا، ويعجل في موضع الأناة، ويبخل في موضع البذل، ويحجم في موضع الإقدام، أو يقدم في موضع الإحجام، ويلين في موضع الشدة، ويشتدُّ في موضع اللين، ويتواضع في موضع العزة، ويتكبر في موضع التواضع.

والشهوة: تحمله على الحرص والشح والبخل وعدم العفة والنهمة والجشع والذل

والغضب: يحمله على الكِبر، والحقد، والحسد، والعدوان، والسفه.

مشاهد تعين العبد على الصبر فيما يصيبه من أذى الخلق وجنايتهم عليه:

قال رحمه الله: للعبد عشرة مشاهد فيما يصيبه من أذى الخلق وجنايتهم عليه:

أحدها: أن ما جرى الله بمشيئة الله وقضائه وقدره...وإذا شهد هذا استراح.

المشهد الثاني: مشهد الصبر، فيشهد وجوبه، وحسن عاقبته، وجزاء أهله، وما يترتب عليه من الغبطة والسرور، وتخلصه من ندامة المقابلة والانتقام.

المشهد الثالث: مشهد العفو والصفح والحلم، فإنه متى شهد ذلك وفضله وحلاوته وعزته لم يعدل عنه إلا لغبش في بصيرته، فإنه ما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً

المشهد الرابع: مشهد الرضا، وهو فوق مشهد العفو والصفح، وهذا لا يكون إلا للنفوس المطمئنة، سيما إن كان ما أُصيبت به سببه القيام لله.

-(٦٩)

المشهد الخامس: مشهد الإحسان، وهو أرفع مما قبله، وهو أن يقابل إساءة المسيء إليه بالإحسان، فيُحسن إليه كلما أساء هو إليه، ويُهون عليه هذا علمه بأنه قد ربح عليه، وأنه قد أهدى إليه حسناته، ومحاها من صحيفته، فأثبتها في صحيفة من أساء إليه، فينبغي لك أن تشكره.

ويهونه عليك أيضاً: علمُك بأن الجزاء من جنس العمل، فإذا كان هذا عملك في إساءة مخلوق إليك عفوت عنه، وأحسنت إليه، مع حاجتك وضعفك وفقرك وذُلّك، فهكذا يفعل المحسن القادر العزيز الغني بك في إساءتك، يقابلها بما قابلت به إساءة عبده إليك.

المشهد السادس: مشهد السلامة وبرِّ القلب، وهذا مشهد شريف لمن عرفه وذاق حلاوته..فإن القلب إذا اشتغل بشيءٍ فاته ما أهم عنده وخير له منه، فيكون مغبوناً، والرشيد لا يرضى بذلك، ويراه من تصرفات السفيه.

المشهد السابع: مشهد الأمن، فإنه إذا ترك المقابلة والانتقام أَمِنَ ما هو شر من ذلك، وإذا انتقم واقعة الخوف ولا بد...والعاقل لا يأمن عدوه ولو كان حقيراً، فكم من حقيرٍ أردى عدوه الكبير.

المشهد الثامن: مشهد الجهاد، وهو أن يشهد تولد أذى الناس له عن جهاده في سبيل الله، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر

وصاحب هذا المقام قد اشترى الله منه نفسه وماله وعرضه بأعظم الثمن، فإن أراد أن يُسلم إليه الثمن فليسلم هو السلعة ليستحق ثمنها، فلا حقَّ له على من آذاه، ولا شيء له قِبَلَه، إن كان قد رضي بعقد هذا التبايع، فإنه قد وجب أجره على الله.

-(٧٠)

المشهد التاسع: مشهد النعمة، وذلك من وجوه:

أحدها: أن يشهد نعمة الله عليه أن جعله مظلوماً يرتقب النصر، ولم يجعله ظالماً يرتقب المقت والأخذ، فلو خير العاقل بين الحالتين ولا بد من إحداهما – لأختار أن يكون مظلوماً.

ومنها: أن يشهد نعمة الله عليه في التكفير من خطاياه....فأذى الخلق لك كالدواء الكريه من الطبيب المشفق عليك، فلا تنظر إلى كراهة الدواء ومن كان على يديه، وانظر إلى شفقة الطبيب الذي ركبه لك، وبعثه إليك على يدي من نفعك بمضرته.

ومنها: أن يشهد كون تلك البلية أهون وأسهل من غيرها.

ومنها توفية أجرها وثوابها يوم الفقر والفاقة...وإن العبد ليشتد فرحه يوم القيامة بما له قِبَلَ الناس من الحقوق في المال والنفس والعرض، فالعاقل يعدُّ ذخراً ليوم الفقر والفاقة.

المشهد العاشر: مشهد الأسوة، وهو مشهد لطيف شريف جداً، فإن العاقل اللبيب يرضى أن يكون له أسوة برسل الله وأنبيائه وأوليائه وخاصته من خلقه، فإنهم أشدُّ الناس امتحاناً بالناس.

المشهد الحادي عشر: وهو أجل المشاهد وأرفعها: مشهد التوحيد، فإذا امتلأ قلبه بمحبة الله تعالى، والإخلاص له ومعاملته، وإيثار مرضاته، والتقرب إليه، وقرت عينه بالله، وابتهج قلبه بحبه والأنس به، واطمأن إليه، وسكن إليه، واشتاق إلى لقائه، واتخذه ولياً من دون ما سواه، بحيث فوض إليه أمور كلها، ورضي به وبأقضيته...فإنه لا يبقى في قلبه متسع لشهود أذى الناس له البتة، فضلاً عن أن يشتغل قلبه وفكره وسرُّه بطلب الانتقام والمقابلة.

(٧١)-

منزلة التواضع

قال رحمه الله: ومن منازل ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين ﴾: منزلة التواضع، قال الله تعالى: ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾ [الفرقان:٦٣] أي سكينةً ووقاراً، متواضعين، غير أشرين، ولا مرحين، ولا متكبرين.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يمرُّ على الصبيان فيُسلم عليهم.

وكان إذا أكل لعق أصابعه الثلاث.

وكان يكون في بيته في خدمة أهله، ولم يكن ينتقم لنفسه قط.

وكان يخصف نعله، ويُرقّع ثوبه، ويحلب الشاة لأهله، ويعلف البعير، ويأكل مع الخادم، ويجالس المساكين، ويمشي مع الأرملة واليتيم في حاجتهما، ويبدأ من لقيه بالسلام، ويجيب دعوة من دعاه ولو إلى أيسر شيءٍ.

وكان هين المؤنة، لين الخُلق، كريم الطبع جميل المعاشرة، طلق الوجه، بساماً، متواضعاً من غير ذلةٍ، جواداً من غير سرفٍ، رقيق القلب، رحيماً بكل مسلمٍ، خافض الجناح للمؤمنين، لين الجانب لهم.

وكان يعود المريض، ويشهد الجنازة، ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد.

التواضع للدين هو الانقياد لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، والاستسلام له والإذعان...وإذا رأيت من أدلة الدين ما يُشكل عليك، وينبو فهمك عنه، فاعلم أنه لعظمته وشرفه استعصى عليك وأن تحته كنز من كنوز العلم لم تؤت مفتاحه بعد

ولا تصحُّ لك درجة التواضع حتى تقبل الحقّ ممن تحبُّ، وممن تُبغض، فتقبله من عدوك كما تقبله من وليك..ومن أساء إليك ثم جاء يعتذر من إساءته، فإن التواضع يوجب عليك قبول معذرته، حقاً كانت أو باطلاً، وتكلُ سريرته إلى الله تعالى.

-(٧٢)

منزلة الذِّكر

قال رحمه الله: ومن منازل ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين ﴾: منزلة الذِّكر، وهي منزلة القوم الكبرى، التي منها يتزودون، وفيها يتجرون، وإليها دائماً يترددون.

الذكر قوت قلوب القوم الذي متى فارقها صارت الأجساد لها قبوراً، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قُطاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الحريق، ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب، والسبب الواصل والعلاقة التي بينهم وبين علام الغيوب.

به يستدفعون الآفات، ويستكشفون الكربات، وتهون عليهم به المصيبات، إذا أظلهم البلاءُ فإليه ملجؤهم، وإذا نزلت بهم النوازل فإليه مفزعهم، فهو رياض جنتهم التي فيها يتقلبون، ورؤوس أموال سعادتهم التي بها يتجرون، يدعُ القلب الحزين ضاحكاً مسروراً.

وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده ما لم يغلقه العبد بغفلته.

وبالذكر يصرع العبدُ الشيطان كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان.

والفرق بين الغفلة والنسيان: أن الغفلة ترك باختيار الغافل، والنسيان ترك بغير اختياره.

وقد ذكرنا في الذكر نحو مائة فائدة في كتاب " الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب" وقد ذكرنا أسرار الذكر، وعِظَمَ نفعه، وطيب ثمرته، وذكرنا فيه أن الذكر ثلاثة أنواع: ذكر الأسماء والصفات ومعانيها، والثناء على الله بها، وتوحيد الله بها.

وذكر الأمر والنهي والحلال والحرام.

وذكر الآلاء والنعماء والإحسان والأيادي.

-(٧٣)

منزلة العلم

قال رحمه الله: ومن منازل ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين ﴾: منزلة العلم، وهذه المنزلة إن لم تصحب السالك من أول قدم يضعه في الطريق إلى آخر قدم ينتهي إليه فسلوكه على غير طريق، وهو مقطوع عليه طريق الوصول، مسدود عليه سبلُ الهدى والفلاح، مغلق عنه أبوابها...ولم ينه عن العلم إلا قطاع الطريق منهم، ونواب إبليس وشُرطُه.

العلم هو حياة القلوب، ونور البصائر، وشفاء الصدور، ورياض العقول، ولذة الأرواح، وأنس المستوحشين، ودليل المتحرين.

وهو الميزان الذي به تُوزن الأقوال والأعمال والأحوال.

وهو الحاكم المفرق بين الشك واليقين، والغي والرشاد، والهدى والضلال.

وبه يُعرف الله ويُعبد، ويذكر ويُوحد، ويُحمد ويمجد، وبه اهتدى إليه السالكون، ومن طريقه وصل إليه الواصلون، ومن باب دخل عليه القاصدون.

وبه تعرف الشرائع والأحكام، ويتميز الحلال من الحرام، وبه تُوصل الأرحام، وبه تُعرف مراضي الحبيب، وبمعرفتها ومتابعتها يُوصل إليه من قريب.

من أحالك على غير (أخبرنا) و (حدثنا) فقد أحالك: أما على خيال صوفي، أو قياس فلسفي، أو رأي نفسي، فليس بعد القرآن، و(أخبرنا) و(حدثنا) إلا شبهات المتكلمين، وآراء المتخرصين، وخيالات المتصوفين، وقياسات المتفلسفين.

ومن فارق الدليل ضلَّ عن سواء السبيل، ولا دليل إلى الله والجنة سوى الكتاب والسنة، وكلُّ طريق لم يصحبها دليل السنة والقرآن فهي من طرق الجحيم والشيطان.

-(٧٤)

منزلة الحكمة

قال رحمه الله: ومن منازل ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين ﴾: منزلة الحكمة، قال الله تعالى: ﴿ يُؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤتَ الحكمة فقد أُوتى خيراً كثيراً ﴾ [البقرة:٢٦٩] وأحسن ما قيل في الحكمة قول مجاهدٍ ومالكٍ: إنها معرفة الحق والعمل به، والإصابة في القول والعمل، وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن، والفقه في شرائع الإسلام وحقائق الإيمان.

ولها ثلاثة أركان: العلم، والحلم، والأناة.

وآفتها وأضدادها: الجهل، والطَّيش، والعَجَلة، فلا حكمة لجاهلٍ، ولا طائشٍ، ولا عجولٍ.

(٧٥)-

منزلة الفراسة

قال رحمه الله: ومن منازل ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين ﴾: منزلة الفراسة،

قال الله تعالى: ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ [الحجر:٧٥] قال مجاهد رحمه الله: للمتفرّسين، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: للناظرين، وقال قتادة: للمعتبرين، وقال مقاتل: للمتفكرين.

ولا تنافي بين هذه الأقوال، فإن الناظر متى نظر في آثار ديار المكذبين ومنازلهم وما آل إليه أمرهم أورثه فراسةً وعبرةً وفكرةً.

الفراسة الإيمانية...نور يقذفه الله في قلب عبده، يُفرق به بين الحق والباطل..والصادق والكاذب.

وهذه الفراسة على حسب قوة الإيمان، فمن كان أقوى إيماناً فهو أحدَّ فراسة.

قال أبو عمرو بن نجيد: كان شاه الكرماني حاد الفراسة، لا يخطئ، ويقول: من غضَّ بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشهوات، وعمر باطنه بدوام المراقبة وظاهره باتباع السنة، وتعود أكل الحلال لم تخطئ فراسته.

وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي: إذا جالستم أهل الصدق فجالسوهم بالصدق، فإنهم جواسيس القلوب، يدخلون في قلوبكم ويخرجون من حيث لا تحتسبون.

ويقال في بعض الكتب القديمة: إن الصديق لا تُخطئ فراسته.

وكان الصديق رضي الله عنه أعظم الأمة فراسةً، وبعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ووقائع فراسته مشهورة، فإنه ما قال لشيءٍ " أظنه كذا " إلا كان كما قال.

وكذلك عثمان بن عفان رضي الله عنه كان صادق الفراسة.

وفراسة الصحابة رضي الله عنهم أصدق الفراسة.

-(٧٦)

وأصل هذا النوع من الفراسة: من الحياة والنور اللذين يهبهما الله لمن يشاء من عباده فيحيا القلب بذلك ويستنير، فلا تكاد فراسته تخطئ.

وللفراسة سببان:

أحدهما: جودة ذهن المتفرس، وحدة قلبه، وحسن فطنته.

والثاني: ظهور العلامات والأدلة على المتفرس فيه.

فإذا اجتمع السببان لم تكد تُخطئ للعبد فراسة، وإذا انتفيا لم تكد تصحُّ له فراسة، وإذا قوي أحدهما وضعف الآخر كانت فراسته بين بين.

وكان إياس بن معاوية من أعظم الناس فراسة، وله الوقائع المشهورة، وكذلك الشافعي رحمه الله، وقيل: إن له فيها تواليف.

ولقد شاهدت من فراسة شيخ الإسلام ابن تيمية أموراً عجيبة، وما لم أشاهده منها أعظم وأعظم، ووقائع فراسته تستدعى سفراً ضخماً، وأخبرني غير مرة بأمور باطنة تختصُّ بي، مما عزمت عليه ولم ينطق به لساني، وأخبرني ببعض حوادث كبار تجري في المستقبل، ولم يُعين أوقاتها، وقد رأيت بعضها وأنا انتظر بقيتها.

(٧٧)-

منزلة التعظيم

قال رحمه الله: ومن منازل ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين ﴾: منزلة التعظيم.

وهذه المنزلة تابعة للمعرفة، فعلى قدر المعرفة يكون تعظيم الرب تعالى في القلب، وأعرفُ الناس به أشدهم له تعظيماً وإجلالاً، وقد ذمّ الله من لم يُعظمه حق عظمته، ولا عرفوه حق معرفته، ولا وصفوه حق صفته، وأقوالهم تدور على هذا.

وقال تعالى: ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً ﴾ [نوح:١٣] قال ابن عباس ومجاهد: لا ترجون لله عظمة، وقال سعيد بن جبير: ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته ؟

(٧٨)-

منزلة السكينة

قال رحمه الله: ومن منازل ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين ﴾: منزلة السكينة.

هذه المنزلة من منازل المواهب، لا من منازل المكاسب، وقد ذكر الله سبحانه السكينة في كتابه في ستة مواضع:

الأول: قوله تعالى: ﴿ وقال لهم نبيهم إن آية مُلكه أن يأتيكم التابوتُ فيه سكينة من ربكم ﴾ [البقرة:٢٤٨]

الثاني: قوله تعالى: ﴿ لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حُنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرضُ بما رحبت ثم وليتم مُدبرين * ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جُنوداً لم تروها ﴾ [التوبة:٢٥-٢٦]

الثالث: قوله تعالى: ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيَّده بجنودٍ لم تروها ﴾ [التوبة:٤٠]

الرابع: قوله تعالى: ﴿ هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السمواتِ والأرضِ وكان الله عليماً حكيماً ﴾ [الفتح:٤]

الخامس: قوله تعالى: ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ [الفتح:١٨]

السادس: قوله تعالى: ﴿ إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ﴾ [الفتح:٢٦]

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إذا اشتدت عليه الأمور قرأ آيات السكينة.

-(٧٩)-

وسمعته يقول في واقعة عظيمةٍ جرت له في مرضه، تعجز العقول والقوى عن حملها – من محاربة أرواح شيطانية ظهرت له إذ ذاك في حال ضعف القوة – قال: فلما اشتد عليَّ الأمر قلت لأقاربي ومن حولي: اقرؤوا آيات السكينة، قال: ثم أقلع عني ذلك الحال، وجلستُ وما بي قَلَبة.

ولقد جرَّبتُ أنا قراءة هذه الآيات عند اضطراب القلب مما يرد عليه، فرأيتُ لها تأثيراً عظيماً في سكونه وطُمأنينته.

وأصل السكينة هي الطمأنينة والوقار، والسُّكون الذي يُنزله الله في قلب عبده، عند اضطرابه من شدة المخاوف، فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه، ويوجب له زيادة الإيمان وقوة اليقين والثبات.

ولهذا أخبر سبحانه وتعالى عن إنزالها على رسوله وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب. كيوم الهجرة، هو وصاحبه في الغار والعدو فوق رؤوسهم، لو نظر إلى ما تحت قدميه لرآهما. وكيوم حنين، ولَّوا مُدبرين من شدة بأس الكفار، لا يلوي أحد على أحدٍ. وكيوم الحديبية حين اضطربت قلوبهم من تحكم الكفار عليهم، ودخولهم تحت شروطهم التي لا تحمِلها النفوس. وحسبك بضعف عمر عن حملها وهو عمر، حتى ثبَّته الله بالصِّدِّيق.

السكينة إذ نزلت في القلب اطمأن بها، وسكنت إليها الجوارح وخشعت، واكتسبت الوقار، وأنطقت اللسان بالصواب والحكمة، وحالت بينه وبين قول الخنا والفحش، واللغو والهجر، وكل باطل.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كنّا نتحدث أن السكينة تنطق على لسان عمر وقلبه.

-(٨٠)

وكثير ما ينطق صاحب السكينة بكلام لم يكن عن فكرة منه ولا رويّةٍ، ولا هيَّأه، ويستغربه هو من نفسه كما يستغرب السامع له، وربما لم يعلم بعد انقضائه بما صدر منه.

وأكثر ما يكون هذا عند الحاجة، وصدق الرغبة من السائل والمُجالس، وصدقِ الرغبة منه هو إلى الله، والإسراع بقلبه إلى بين يديه وحضرته، مع تجرده من الهوى، وتجريده النصيحة لله ورسوله وعباده، وإزالة نفسه من البين.

(٨١)-

منزلة الطُّمأنينة

قال رحمه الله: ومن منازل ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين ﴾: منزلة الطُّمأنينة.

قال الله تعالى: ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قُلُوبهم بذكر الله إلا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ [الرعد:٢٨] وقال تعالى: ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضيةً مرضيةً * فادخلي عبادي * وادخلي جنتي ﴾ [الفجر:٢٧-٣٠]

الطُّمأنينة: سكون القلب إلى الشيء، وعدم اضطرابه وقلقه.

طمأنينة من قام بتبليغ دين الله لحكمه الديني والقدري

قال رحمه الله: من أدركه الضجر من قوة التكاليف، وأعباء الأمر وأثقاله، ولاسيما فيمن أُقيم مقام التبليغ عن الله، ومجاهدة أعداء الله، وقطاع الطريق له، فإن ما يحمله ويتحمله فوق ما يحمله الناس ويتحملونه، فلا بد أن يدركه الضجر، ويضعف صبره، فإذا أراد الله أن يُريحه ويحمل عنه أنزل عليه سكينته، فاطمأن إلى حكمه الديني وحكمه القدري، ولا طمأنينة له بدون مشاهدة الحكمين، وبحسب مشاهدته لهما تكون طمأنينته، فإنه إذا اطمأن إلى حكمه الديني علم أنه دينه الحق وهو صراطه، وهو ناصره وناصر أهله، وكافيهم ووليهم، وإذا اطمأن إلى حكمه الكوني علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فلا وجه للجزع والقلق إلا ضعف اليقين والإيمان.

طمأنينة المبتلى إلى ثواب الله

قال رحمه الله: المبتلى إذا قويت مشاهدته للمثوبة سكن قلبه واطمأنَّ بمشاهدة العوض حتى يستلذ بالبلاء ويراه نعمه، ولا يستبعد هذا فكثير من العقلاء إذا تحقق نفع الدواء الكريه فإنه يكاد يلتذَّ به، وملاحظته لنفعه تغنيه عن تألمه بمذاقه.

-(٨٢)

منزلة المحبّة

قال رحمه الله: ومن منازل ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين ﴾: منزلة المحبة.

وهي المنزلة التي فيها يتنافس المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى علمها شمر السابقون، وعليها تفانى المحبون، وبروح نسيمها تروح العابدون، فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة العيون، وهي الحياة التي من حُرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده ففي بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه حلَّت بقلبه جميعُ الأسقام، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كلُّه هموم والآم.

وهي روح الإيمان والأعمال والمقامات والأحوال، التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه، تحملُ أثقال السائرين إلى بلادٍ لم يكونوا إلا بشِقّ الأنفس بالغيها، وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبداً واصليها، وتُبوّئهم من مقاعد الصدق مقاماتٍ لم يكونوا لولا هي داخليها.

تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة، إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب، وقد قضى الله....أنّ المر مع من أحب، فيا لها من نعمة على المحبين سابغة!

لما كثر المدعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى...﴿ قُل إن كنتم تُحبُّون الله فاتبعوني يُحببكم الله ﴾ [آل عمران: ٣١]

فتأخر الخلق كلهم، وثبت أتباع الحبيب في أفعاله وأقواله وأخلاقه، فطولبوا بعدالة البينة بتزكية ﴿ يُجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائمٍ ﴾ [المائدة: ٥٤]

فتأخر أكثر المحبين وقام المجاهدون فقيل لهم إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم، فهلُمُّوا إلى بيعة ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ﴾ [التوبة: ١١١]

-(٨٣)

الأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها:

قال رحمه الله: الأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها:..عشرة:

أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أُريد به

الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض.

الثالث: دوام ذكره على كل حالٍ: باللسان والقلب، والعمل، والحال.

الرابع: إيثار محابِّه على محابِّك عند غلبات الهوى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها ومعرفتها.

السادس: مشاهدة بِره وإحسانه وآلائه ونِعمه الباطنة والظاهرة.

السابع: وهو من أجبها، انكسار القلب بين يديه.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرت كلماتهم.

العاشر: مباعدة كل سببٍ يحول بين القلب وبين الله عز وجل.

من ينكرون محبة الله جل جلاله:

قال رحمه الله:عند الجهمية والمعطلة.لا يُحَبُّ لذاته ولا يُحِبُّ، فأنكروا حياة القلوب ونعيم الأرواح، وبهجة النفوس، وقرة العيون، وأعلى نعيم الدنيا والآخرة، ولذلك ضربت قلوبهم بالقسوة وضرب دونهم ودون الله حجاب..فلا يعرفونه ولا يحبُّونه.

لذة المحبة تُنسي المصائب:

قال رحمه الله: المحب يجد في لذة المحبة ما يُنسيه المصائب، ولا يجد من مسها ما يجد غيره، حتى كأنه قد اكتسى طبيعة ثانية ليست بطبيعة الخلق، بل يقوى سلطانُ المحبة، حتى يلتذّ بكثير من المصائب أعظم من التذاذ الخَلِي بحظوظه وشهواته.

(٨٤)ـ

المحبة تثبت باتِّباع السنة:

قال رحمه الله: قوله"وتثبت باتِّباع السنة"، أي ثباتها بمتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم في أعماله وأقواله وأخلاقه، فبحسب هذا الاتِّباع يكون منشأ هذه المحبة وثباتها وقوتها، وبحسب نقصانه يكون نقصانها

ليس الشأن أن تحبّ الله، بل الشأن في أن يحبّك الله، ولا يُحبك إلا إذا اتبعت حبيبه ظاهراً وباطناً، وصدقته خبراً، وأطعته أمراً، وأجبته دعوةً، وآثرته طوعاً.

وتأمل قوله: ﴿ فاتبعوني يُحببكم الله ﴾ [آل عمران:٣١] أي الشأن في أن الله يحبُّكم، لا في أنكم تحبُّونه، وهذا لا تنالوه إلا باتِّباع الحبيب.

العقول تحكم بوجوب تقديم محبة الله على محبة النفس والأهل والمال والولد

قال رحمه الله: العقول تحكم بوجوب تقديم محبة الله على محبة النفس والأهل والمال والولد وكلِّ ما سواه.

وكلُّ من لم يحكم عقله بهذا فلا تعبأ بعقله، فإن العقل والفطرة والشرعة والاعتبار والنظر يدعو إلى محبته، بل إلى توحيده في المحبة، وإنما جاءت الرسل بتقرير ما في الفطر والعقول.

منزلة السرور

قال رحمه الله: ومنها السُّرور،

قال الله تعالى: ﴿ قُل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾ [يونس:٥٨]

قال ابن عباس وقتادة ومجاهد والحسن، وغيرهم: فضل الله: الإسلام، ورحمته: القرآن.

والفرح لذة تقع في القلب بإدراك المحبوب ونيل المشتهى، فيتولد من إدراكه حاله تسمى الفرح والسُّرور، كما أن الحزن والغمَّ من فقد المحبوب، فإذا فقده تولد من فقده حالة تسمى الغمّ والحزن.

فالفرح بالله وبرسوله وبالإيمان والسنة، وبالعلم والقرآن من أعلى مقامات العارفين، قال الله تعالى: ﴿ وإذا ما أُنزلت سورة فمنهم من يقُولُ أيُّكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ﴾ [التوبة:١٢٤] وقال: ﴿والذين أتيناهم الكتاب يفرحون بما أنُزل إليك ﴾ [الرعد:٣٦]

فالفرح بالعلم والإيمان والسنة دليل على تعظيمه عند صاحبه، ومحبته له، وإيثاره له على غيره، فإن فرح العبد بالشيء عند حصوله له على قدر محبته له، ورغبته فيه، فمن ليس له رغبة في الشيء لا يُفرحه حصوله، ولا يُحزنه فواتُه، فالفرح تابع للمحبة والرّغبة.

(٨٦)-

منزلة الغربة

قال رحمه الله: قال شيخ الإسلام: باب الغربة، قال الله تعالى: ﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض ﴾ [هود:١١٦] استشهاده بهذه الآية في هذا الباب يدلُّ على رسوخه في العلم والمعرفة وفهم القرآن، فإن الغرباء في العالم هم أهل هذه الصفة المذكورة في الآية، وهم الذين أشار إليهم النبي صلى اله عليه وسلم في قوله: (بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً، فطوبى للغرباء) قيل: ومن الغرباء يا رسول الله ؟ قال: (الذين يصلحون إذا فسد الناس)

فأهل الإسلام في الناس غرباء، والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء، وأهل العلم في المؤمنين غرباء، وأهل السنة الذين يميزونها من الأهواء والبدع فيهم غرباء، والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين لهم أشدُّ هؤلاء غربةً، ولكن هؤلاء هم أهل الله حقاً، فلا غربة عليهم، وإنما غربتهم بين الأكثرين الذين قال الله فيهم: ﴿ وإن تطع أكثَرَ من في الأرض يُضلُّوك عن سبيل الله ﴾ [الأنعام:١١٦]

قال الحسن: المؤمن في الدنيا كالغريب لا يجزع من ذلها، ولا ينافس في عزها، للناس حال وله حال، الناس منه في راحةٍ وهو من نفسه في تعبٍ.

الإسلام الحق الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه هو اليوم أشدُّ غربةً منه في أول ظهوره، وإن كانت أعلامه ورسومه الظاهرة مشهورة معروفة، فالإسلام الحقيقيُّ غريب جداً، وأهله غرباء بين الناس.

-(٨٧)

فإذا أراد المؤمن الذي قد رزقه الله بصيرةً في دينه، وفقهاً في سنة رسوله، وفهماً في كتابه، وأراه ما الناس فيه من الأهواء والبدع والضلالات، وتنكبهم عن الصراط المستقيم الذي كان عليه

رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه، فإذا أراد أن يسلك هذا الصراط فليوطِّن نفسه على قدح الجهال وأهل البدع فيه، وطعنهم عليه، وإزرائهم به، وتنفير الناس عنه، وتحذيرهم منه.
فهو غريب في دينه لفساد أديانهم، غريب في تمسكه بالسنة لتمسكهم بالبدع، غريب في اعتقاده لفساد عقائدهم، غريب في صلاته لسوء صلاتهم، غريب في طريقه لفساد طرقهم...غريب في معاشرتهم لهم، لأنه يعاشرهم على ما لا تهوى أنفسهم.

(٨٨)-

منزلة التمكُّن

قال رحمه الله: قال صاحب المنزل: باب التمكُّن. قال الله تعالى: ﴿ ولا يستخفنك الذين لا يُوقنون ﴾ [الروم:٦٠]

وجه الاستدلال بالآية في غاية الظهور، وهو أن المتمكِّن لا يبالي بكثرة المُشغلات، ولا بمخالطة أصحاب الغفلات، ولا بمعاشرة أل البطلات، بل قد تمكن بصبره ويقينه عن استفزازهم إياه واستخفافهم له، ولهذا قال: ﴿ فاصبر إن وعد الله حق ﴾ [الروم:٦٠] فمن وفى الصبر حقَّه، وتيقن أن وعد الله حق، لم يستفزه المبطلون، ولم يستخفه الذين لا يوقنون، ومتى ضعف صبره أو يقينه أو كلاهما استفزه هؤلاء واستخفه هؤلاء، فجذبوه إليهم بحسب ضعف قوة صبره ويقينه، فكلما ضعف ذلك منهم قوى جذبهم له، وكلما قوى صبره ويقينه قوِي انجذابُه منهم وجذبُه لهم.

منزلة المعاينة

قال رحمه الله: قال شيخ الإسلام: باب المعاينة.

العمل إنما هو على الشواهد، وعلى حسب شاهد العبد يكون عمله.

ونحن نشير بعون الله وتوفيقه إلى الشواهد إشارةً يُعلم بها حقيقة الأمر.

فأول شواهد السائر إلى الله والدار الآخرة: أن يقوم به شاهد من الدنيا وحقارتها، وقلة وفائها، وكثرة جفائها، وخسة شركائها، وسرعة انقضائها، ويرى أهلها وعشاقها صرعى حولها، قد بدعت بهم، وعذَّبتهم بأنواع العذاب، وأذاقتهم أمرَّ الشراب، أضحكتهم قليلاً وأبكتهم طويلاً، سقتهم كؤوس سُمِّها بعد كؤوس خمرها، فسَكِروا بحبها، وماتوا بهجرها.

فإذا قام بالعبد هذا الشاهد منها ترحل قلبه عنها، وسافر في طلب الدار الآخرة، وحينئذ يقوم بقلبها شاهد من الآخرة ودوامها، وأنها الحيوان حقاً، فأهلها لا يرتحلون منها، ولا يظعنون عنها، بل هي دار القرار، ومحيط الرحال، ومنتهى السير، وأن الدنيا بالنسبة إليها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بما يرجع)

ثم يقوم بقلبه شاهد من النار، وتوقدها، واضطرامها، وبُعد قعرِها، وشدّة حرها، وعظيم عذاب أهلها، فيشاهدهم وقد سيقوا إليها سود الوجوه، زُرق العيون، والسلاسل والأغلال في أعناقهم، فلما انتهوا إليها فتحت في وجوههم أبوابها، فشاهدوا ذلك المنظر الفظيع، وقد تقطعت قلوبهم حسرةً وأسفاً، ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴾ [الكهف:٥٣]

-(٩٠)

فيراهم شاهد الإيمان وهم إليها يدفعون، وأتى بالنداء من قبل الرحمن أن قِفُوهم إنهم مسؤولون، ثم قيل لهم: ﴿ هذه النار التي كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أولا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ [الطور: ١٤-١٦]

فيراهم شاهد الإيمان وهم في الحميم على وجوههم يُسحبون، وفي النار كالحطب يُسجرون، ﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ﴾ [الأعراف: ٤١] فبئس اللحاف وبئس الفراش، وإن يستغيثوا من شدة العطش يُغاثوا بماءٍ يشوي الوجوه، فإذا شربوا قطَّع أمعاءهم في أجوافهم، وصهر ما في بطونهم، شرابهم الحميم، وطعامهم الزقُّوم، ﴿ لا يقضى عليهم فيمُوتوا ولا يُخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور * وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كُنَّا نعمل أولم نُعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ [فاطر: ٣٦-٣٧]

فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهد انخلع من الذنوب والمعاصي، واتباع الهوى، ولبس ثياب الخوف والحذر، وأخصب قلبه من مطر أجفانه، وهان عليه كلُّ مصيبة في غير دينه وقلبه.

وعلى حسب قوة هذا الشاهد يكون بُعدُه من المعاصي والمخالفات، فيُذيب هذا الشاهدُ من قلبه الفضلات والمواد المهلكة، وينضحها ثم يُخرجها، فيجد القلب لذة العافية وسرورها.

-(٩١)

فيقوم به بعد ذلك شاهد من الجنة، وما أعدَّ الله لأهلها فيها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فضلاً عما وصفه لعباده على لسان رسوله من النعيم المفصل، الكفيل بأعلى أنواع اللذة من المطاعم والمشارب، والملابس والصُّور، والبهجة والسرور، فيقوم بقلبه شاهدُ دار قد جعل النعيم المقيم الدائم بحذافيره فيها، ترابها المسك، وحصباؤها الدُّرُّ، وبناؤها لَبِنُ الذهب والفضة وقصبُ اللؤلؤ، وشرابها أحلى من العسل، وأطيب رائحة من المسك، وأبرد من الكافور، وألذُّ من الزنجبيل، ونساؤها لو برز وجه إحداهن في هذه الدنيا لغلب على ضوء الشمس، ولباسهم الحرير من السندس والإستبرق، وخدمهم ولدان كاللؤلؤ المنثور، وفاكهتهم دائمة، لا مقطوعة ولا ممنوعة، وغذاؤهم لحم طير مما يشتهون، وشرابهم عليه خمرة لا فيها غول ولا هم عنها يُنزَفُون، وخضرتهم فاكهة مما يتخيرون، ومشاهدهم حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون، فهم على الأرائك متكئون، وفي تلك الرياض يُحبرون، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذُّ الأعين وهم فيها خالدون

فإذا انضم إلى هذا الشاهد شاهد يوم المزيد، والنظر إلى وجه الرب جلّ جلاله، وسماع كلامه منه بلا واسطة، كما قال صلى الله عليه وسلم: (بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الربُّ تبارك وتعالى قد أشرف عليهم من فوقهم، وقال: يا أهل الجنة، سلام عليكم. ثم قرأ قوله: ﴿ سلام قولاً من ربٍ رحيم ﴾ [يس:٥٨] ثم يتوارى عنهم، وتبقى رحمته وبركته في ديارهم.

فإذا انضم هذا الشاهد إلى الشاهد الذي قبله فهناك يسير القلب إلى ربه أسرع من سير الرياح من مهابها، فلا يلتفت في طريقه يميناً ولا شمالاً.

-(٩٢)

هذا، وفوق ذلك شاهد آخر تضمحلُّ فيه هذه الشواهد، ويغيب العبد به عنها كلها، وهو شاهد جلال الرب تعالى وجماله وكماله وعزّه وسلطانه، وقيُّوميّته وعلوه فوق عرشه، وتكلمه بكتبه وكلمات تكوينه، وخطاب لملائكته وأنبيائه.

فإذا شاهد بقلبه قيُّوماً قاهراً فوق عباده، مستوياً على عرشه، منفرداً بتدبير مملكته، آمراً ناهياً، مرسلاً رسله، ومُنزلاً كتبه، يرضى ويغضب، ويُثيب ويعاقب، ويعطى ويمنع، ويُعزُّ ويُذلُّ، ويحبُّ ويبغض، ويرحم إذا استُرحم، ويغفر إذا استُغفر، ويُعطي إذا سئل، ويجيب إذا دُعي، ويُقيل إذا استُقيل، أكبرُ من كل شيءٍ، وأعظمُ من كلِّ شيءٍ، وأعزُّ من كلِّ شيءٍ، وأقدرُ من كلِّ شيءٍ، وأعلمُ من كلِّ شيءٍ، وأحكمُ من كلِّ شيءٍ، فلو كانت قوى الخلائق كلهم على واحد منهم، ثم كانوا كلُّهم على تلك القوة، ثم نُسبت تلك القوى إلى قوته تعالى لكانت أقلَّ من قوة البعوضة بالنسبة إلى قوة الأسد، ولو قُدِّر جمال الخلق كلُّهم على واحد منهم، ثم كانوا كلُّهم بذلك الجمال، ثم نُسِب إلى جمال الربِّ تعالى لكان دون سراجٍ ضعيفٍ بالنسبة إلى عين الشمس، ولو كان علمُ الأولين والآخرين على رجلٍ منهم، ثم كان كلُّ الخلق على ذلك، ثم نُسِب إلى علم الربِّ تعالى لكان كنقرة عصفورٍ من البحر.

وهكذا سائر صفاته، كسمعه وبصره وسائر نعوت كمال، فإنه يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللُّغات على تفنُّن الحاجات، فلا يشغله سمع عن سمعٍ، ولا تُغلطه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح المُلحين، سواء عنده من أسرَّ القول ومن جهر به، فالسِّرُّ عنده علانية، والغيب عنده شهادة، يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمّاء في الليلة الظلماء، ويرى عروق نياطها ومجارى القوت في أعضائها، يضع السماوات على إصبع من أصابع يده، والأرض على إصبع، والجبال على إصبع،

-(٩٣)

والشجر على إصبع، والماء على إصبع، ويقبض سماواته بإحدى يديه، والأرضين باليد الأخرى، والسماوات السبع في كفِّه كخردلة في كفِّ العبد، ولو أن الخلق كلَّهم من أولهم إلى آخرهم قاموا صفاً واحداً ما أحاطوا بالله عز وجل، لو كَشَفَ الحجاب عن وجهه لأحرقت سُبُحاتُه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهد اضمحلَّت فيه الشواهد المتقدمة من غير أن تعدم، بل تصبير الغلبة والقهر لهذا الشاهد، وتندرج فيه الشواهد كلُّها، ومن هذا شاهده فله سلوك وسير خاص، ليس لغيره ممن عن هذا في غفلةٍ أو معرفةٍ مجملةٍ.

فصاحبُ هذا الشاهد سائر إلى الله في يقتظه ومنامه، وحركته وسكونه، وفطره وصيامه، له شأن وللناس شأن، هو في وادٍ وهم في وادٍ.

وطهارة القلب ونزاهتُه من الأوصاف المذمومة والإرادات السُّفلية، وخلوُّه وتفريغُه من التعلق بغير الله سبحانه، هو كرسي هذا الشاهد الذي يجلس عليه، ومقعده الذي يتمكن فيه، فحرام على قلبٍ متلوّثٍ بالخبائث والأخلاق والصِّفات الذميمة متعلِّقٍ بالمرادات السافلة أن يقوم به هذا الشاهد أو يكون من أهله.

إذا طلعت شمسُ التوحيد، وباشرت حرارتها الأرواح، ونورها البصائر تجلت بها ظلمات النفس والطبع، وتحركت بها الروحُ في طلب من ليس كمثله شيءٍ، فسافر القلب في بيداء الأمر، ونزل منازل العبودية منزلاً منزلاً، فهو ينتقل من عبادة إلى عبادةٍ، مقيماً على معبودٍ واحدٍ، فلا تزال شواهد الصفات قائمة بقلبه، توقظه إذا رقد، وتُذكره إذا غفل، وتحدُو به إذا سار، وتُقيمه إذا قعد.

إن قام بقلبه شاهد من الرُّبوبية والقيُّوميّة، رأى أن الأمر كله لله، ليس لأحد معه من الأمر شيء.

ـ(٩٤)

﴿ ما يفتح اللهُ للناسِ من رحمةٍ فلا مُمسك لها وما يُمسك فلا مُرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم * يا أيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم هل من خالقٍ غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تُؤفكون ﴾ [فاطر:٢-٣]

﴿ وإن يمسسك الله بضُرٍ فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخيرٍ فلا راد لفضله يُصيبُ به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم ﴾ [يونس:١٠٧]

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قُل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضُرٍ هل هن كاشفاتُ ضره أو أرادني برحمةٍ هل هن مُمسكتُ رحمتِهِ قُل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون﴾ [الزمر:٣٨]

﴿ قُل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قُل أفلا تذكرون * قُل من ربُّ السموات السبع وربُّ العرش العظيم * سيقولون الله قُل ألا تتقون * قُل من بيده ملكوتُ كلِّ شيءٍ وهو يُجيرُ ولا يُجارُ عليه إن كنتم تعلمون * سيقولون الله قُل فأنى تُسحرون ﴾ [المؤمنون:٨٤-٨٩]

منزلة الحياة

قال رحمه الله: قال صاحب المنازل: باب الحياة.قال الله تعالى: ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه ﴾ [الأنعام:١٢٢] استشهاده بهذه الآية في هذا الباب ظاهر جداً، فإن المراد بها: من كان ميت القلب بعدم روح العلم والهدى والإيمان، فأحياه الربُّ تعالى بروح أخرى غير الرُّوح التي أحيا بها بدنه، وهي روح معرفته وتوحيده ومحبته وعبادته وحده لا شريك له، إذ لا حياة للروح إلا بذلك، وإلا فهي في جملة الأموات، ولهذا وصف الله تعالى من عَدِمَ ذلك بالموت، فقال: ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه ﴾ وقال: ﴿ إنك لا يُسمع الموتى ولا تُسمع الصُّمّ الدُّعاء ﴾ [النمل:٨٠] وسمى وحيه روحاً لما يحصُل به من حياة القلوب والأرواح، فقال تعالى: ﴿ وكذلك أوحينا إليك رُوحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾ [الشورى:٥٢]...فبالوحي حياة الروح، كما أن بالرُّوح حياة البدن، ولهذا من فقد هذا الرُّوح فقد الحياة النافعة في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فحياته حياة البهائم، وله المعيشة الضَّنك، وأمّا في الآخرة فله جنهم لا يموت فيها ولا يحيا.

الحياة الطيبة:

قال رحمه الله: قد جعل تعالى الحياة الطيبة لأهل معرفته ومحبته وعبادته، فقال تعالى: ﴿ من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أُنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ [النحل:٩٧] و..الحياة الطيبة..حياة القلب ونعميه وبهجته وسروره بالإيمان ومعرفة الله، ومحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه.

وإذا كانت حياة القلب حياةً طيبةً تبعته حياة الجوارح، فإنه مَلِكها.

-(٩٦)

وهذه الحياة الطيبة تكون في الدور الثلاثة، أعني: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، والمعيشة الضنك أيضاً في الدور الثلاثة، فالأبرار في نعيم هاهنا وهناك، والفجار في الجحيم هاهنا وهناك، قال تعالى: ﴿ للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ﴾ [النحل:٣٠] وقال: ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يُمتعكم متاعاً حسناً إلى أجلٍ مُسمى ويؤت كُلَّ ذي فضلٍ فضله ﴾ [هود:٣]

حياة أهل الإيمان والعمل الصالح في دار النعيم:

قال رحمه الله: وإذا كانت حياة أهل الإيمان والعمل الصالح في هذه الدار حياة طيبة، فما الظن بحياتهم في البرزخ، وقد تخلصوا من سجن الدنيا وضيقها ؟ فما الظنُّ بحياتهم في دار النعيم المقيم الذي لا يزول ؟

فهم في نعيم دائم، وخلود متصل، ومقام كريم، وجنةٍ عرضها السموات والأرض في جوار رب العالمين، وأرحم الراحمين، وأقدر القادرين، وأحكم الحاكمين، الذي له الخلق والأمر، وبيده النفع والضرُّ...الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويُغيث الملهوف إذا ناداه، ويكشف السُّوء، ويُفرج الكربات، ويُقيل العثرات، الذي يهدي خلقه في ظلمات البرِّ والبحر، ويرسل الرياح بُشراً بين يدي رحمته، فيحيي الأرض بوابل القطر...المستعان به على كل نائبة وفادحة، والمعهود منه كل برٍّ وكرامة، الذي عنت له الوجوه، وخشعت له الأصوات، وسبحت بحمده الأرض والسماوات وجميع الموجدات، الذي لا تسكن الأرواح إلا بحبه، ولا تطمئن القلوب إلا بذكره، ولا تزكو العقول إلا بمعرفته، ولا يُدرك النجاح إلا بتوفيقه، ولا تحيا القلوب إلا بنسيم قربه ولطفه، ولا يقع أمر إلا بأذنه، ولا يهتدي ضال إلا بهدايته، ولا يستقيم ذو أودٍ إلا بتقويمه، ولا يفهم أحد شيئاً إلا بتفهيمه، ولا يتخلص من مكروه إلا ـ(٩٧)

برحمته، ولا يحفظ شيء إلا بكلاءته، ولا يفتح أمر إلا باسمه، ولا يتم إلا بحمده، ولا يدرك مأمول إلا بتيسيره، ولا تُنال سعادة إلا بطاعته، ولا حياة إلا بذكره ومحبته ومعرفته، ولا طابت الجنة إلا بسماع خطابه ورؤيته، الذي وسع كل شيءٍ رحمةً وعلماً، وأوسع كلَّ مخلوق فضلاً وبراً....فترحالنا..إلى هذه الدار بإذن ربنا وتوفيقه وإحسانه...وهي الحياة التي شمَّر إليها المشمرون، وتسابق إليها المتسابقون، وتنافس فيها المتنافسون.

فإن قلت: ما سبب تخلف النفس عن طلب هذه الحياة ؟

فأقوى الأسباب في ذلك ضعف الإيمان...فإذا قوي الإيمان قوي الشوق إلى هذه الحياة واشتد طلب صاحبه لها.

السبب الثاني: جثوم الغفلة على القلب، فإن الغفلة نوم القلب، ولهذا تجد كثيراً من الأيقاظ في الحس نياماً، فتحسبهم أيقاظ وهو رقود، ضدّ حال من يكون يقظان القلب وهو نائم، فإن القلب إذا قويت فيه الحياة لا ينام إذا نام البدن، وكمال هذه الحياة كان لنبينا صلى الله عليه وسلم، ولمن أحيا الله بقلبه بمحبته واتباع رسوله من ذلك بحسب نصيبه منهما.

الجاهل ميت القلب والروح وإن كان حيَّ البدن:

قال رحمه الله: الجاهل ميت القلب والروح وإن كان حيَّ البدن، فجسده قبر يمشي به على وجه الأرض، قال تعالى: : ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارجٍ منها ﴾ [الأنعام:١٢٣]

(٩٨)-

وحياة القلب بدوام الذكر، والإنابة إلى الله، وترك الذنوب، والغفلة الجاثمة على القلب والتعلق بالرذائل والشهوات المنقطعة عن قُربٍ تُضعف هذه الحياة، ولا يزال الضعف يتوالى عليه حتى يموت، وعلامة موته: أنه لا يعرف معروفاً ولا يُنكر منكراً، كما قال عبدالله بن مسعود: أتدرون من ميّتُ الأحياء الذي قيل فيه:

ليس من مات فاستراح بميتٍ إنما الميتُ ميّتُ الأحياءِ

قالوا: ومن هو ؟ قال: الذي لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً.

الموت موتان:

قال رحمه الله: الموت موتان: موت إرادي وموت طبيعي فمن أمات نفسه موتاً إرادياً كان موته الطبيعي حياةً له ومعنى هذا أن الموت الإرادي هو قمع الشهوات المردية، وإخماد نيرانها المُحرقة..فحينئذٍ يتفرغ القلب والروح للتفكر فيما فيه كمال العبد ومعرفته..فإذا مات موته الطبيعي كانت بعده حياة روحه بتلك العلوم النافعة والأعمال الصالحة..التي حصلت له بإماتة نفسه فتكون حياته هاهنا على حسب موته الإرادي في هذه الدار وهذا موضع لا يفهمه إلا ألباء الناس وعقلاؤهم.

أكمل الناس حياةً:

قال رحمه الله: أكمل الناس حياة أكملهم حياءً، ونقصان حياء المرء من نقصان حياته، فإن الروح إذا ماتت لم تحسّ بما يُؤلمها من القبائح، فلا تستحيي منها، وإذا كانت صحيحة أحسَّت بذلك فاستحيت منه، وكذلك سائر الأخلاق والصفات الممدوحة تابعة لقوة الحياة، وضدها من نقصان الحياة.

والرجل هو الذي يخاف موت قلبه لا موت بدنه، إذ أكثر هذا الخلق يخافون موت أبدانهم، ولا يبالون بموت قلوبهم.

ـ(٩٩)

الحياة الطبيعة الكل يطلبها وأقل القليل الذي نالها:

قال رحمه الله: حياة الفرح والسرور وقرّة العين...وحول هذه الحياة يُدندن الناس كلُّهم، وكلُّهم قد أخطأ طريقها، وسلك طرقاً لا تفضي إليها، بل تقطعه عنها، إلا أقلّ القليل، فدار طلبُ الكلِّ حول هذه الحياة، وحُرمها أكثرهم.

أسباب حرمان الكثيرين من الحياة الطيبة:

قال رحمه الله: وسبب حرمانها: ضعف العقل والتمييز والبصيرة، وضعف الهمة والإرادة، فإن مادتها بصيرة وقَّادة، وهمة نفاذة، والبصيرة كالبصر تكون عمياء وعوراء وعمشاء ورمداء، وتامة النور والضياء، وهذه الآفات قد تكون لها بالخلقة في الأصل، وقد تحدثُ فيها بالعوارض الكسبية.

والمقصود: أن هذه المرتبة من مراتب الحياة هي أعلى مراتبها، ولكن كيف يصل إليها من عقله مسبي في بلاد الشهوات، وأمله موقوف على اجتناء اللذات، وسيرته جارية على أسوأ العادات، ودينه مستهلك بالمعاصي والمخالفات، وهمته واقفة مع السفليات، وعقيدته غير متلقاةٍ من مشكاة النّبُوات ؟

فهو في الشهوات منغمس، وفي الشهوات منتكس، وعن الناصح معرض، وعلى المرشد معترض، وعن السُّرى نائم، وقلبه في كل وادٍ هائم.

الطريق لذوق الحياة الطيبة:

قال رحمه الله: فإن قلت قد أشرت إلى حياة غير معهودة..فهل يمكنك وصف طريقها، لأصل إلى شيء من ذوقها...؟ قلت: لعمر الله إن اشتياق القلب إلى هذه الحياة، وطلب علمها ومعرفتها دليل على حياته، وأنه ليس من جملة الأموات

-(١٠٠)

فأول طريقها: أن تعرف الله سبحانه، وتهتدي إليه طريقاً يُوصيك إليه، ويخرق ظلمات الطبع بأشعة البصيرة، فيقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة، فينجذب إليها بكليته، ويزهد في التعلُّقات الفانية، ويدأب في تصحيح التوبة، والقيام بالمأمورات الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات الظاهرة والباطنة، ثم يقوم حارساً على قلبه، فلا يسامحه بخطرة يكرهها الله، ولا بخطرة فضول لا تنفعه، فيصفو بذلك قلبه عن حديث النفس ووساوسها..فحينئذٍ يخلو قلبه بذكر قلبه ومحبته والإنابة إليه..فحينئذٍ يجتمع قلبه وخواطره وحديث نفسه على إرادة ربه، وطلبه والشوق إليه.

فإذا صدق في ذلك رُزِقَ محبة الرسول صلى الله عليه وسلم، واستولت روحانيته على قلبه، فجعله إمامه، وأستاذه ومعلمه، وشيخه وقدوته، كما جعله الله نبيه ورسوله وهاديه، فيطالع سيرته ومبادئ أموره، وكيفية نزول الوحي عليه، ويعرف صفاته وأخلاقه، وآدابه في حركاته وسكونه، ويقظته ومنامه، وعبادته ومعاشرته لأهله وأصحابه، حتى يصير كأنّه معه من بعض أصحابه.

فإذا رسخ قلبه في ذلك فُتح عليه بفهم الوحي المنزل عليه من ربه، بحيث إذا قرأ السورة شاهد قلبه ماذا أُنزلت فيه، وماذا أُريد بها، وحظه المختص به منها من الصفات والأخلاق والأفعال المذمومة، فيجتهد في التخلص منها كما يجتهد في الشفاء من المرض المخوف، ومن الصفات والأفعال الممدوحة، فيجتهد في تكميلها وإتمامها.

-(١٠١)

منزلة الانفصال

قال رحمه الله: قال صاحب المنازل: باب الانفصال.قال الله تعالى: ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ [آل عمران:٢٨]

وجه الإشارة من الآية أنه سبحانه المقرب المُبعد، فليحذر القريب من الإبعاد، والمتَّصل من الانفصال، – فإن الحق جل جلاله– غيور، لا يرضى ممن عرفه ووجد حلاوة معرفته، واتصل قلبه بمحبته والأنس به، وتعلقت روحه بإرادة وجهه الأعلى أن يكون له التفات إلى غيره البتة.

ومن غيرته سبحانه حرَّم الفواحش، والله سبحانه يغار أشدَّ الغيرة على عبده أن يلتفت إلى سواه، فإذا أذاقه حلاوة محبَّتِه، ولذة الشوق إليه، وأنس معرفته، ثم ساكن غيره باعده من قربه، وقطعه من وصله، وأوحشه سرَّه، وشتَّت قلبه، ونغَّص عيشه، وألبسه رداء الذل والصغار والهوان، فنادى عليه حالُه، إن لم يصرح به قالُه: هذا جزاء من تعوض عن وليه وإلهه وفاطره ومن لا حياة له إلا به بغيره وآثر غيره عليه فاتخذ سواه له حبيباً ورضي بغيره أنيساً، واتخذ سواه ولياً، ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لأدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذُريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً﴾[الكهف:٥٠]

فإذا ضرب هذا القلب بسوط البعد والحجاب، وسلط عليه من يسومه سوء العذاب، وملئ من الهموم والغموم والأحزان فصار محلاً للجيف والأقذار والأنتان، وبّدِّل بالأنس وحشة، وبالعزِّ ذلاً، وبالقنع حرصاً، وبالقرب بعداً وطرداً، وبالجمع شتاتاً وتفرقه، كان هذا بعض جزائه.

-(١٠٢)

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
خطبة الكتاب	٦
منزلة اليقظة	٩
منزلة الفكرة	١٣
منزلة البصيرة	١٤
منزلة القصد	١٥
منزلة العزم	١٥
منزلة المحاسبة	١٦
منزلة التوبة	٢٠
منزلة الإنابة	٢٥
منزلة التذكر	٢٧
منزلة الاعتصام	٣١
منزلة الفرار	٣٢
منزلة الرياضة	٣٤
منزلة السماع	٣٥
منزلة الخوف	٣٨
منزلة الإشفاق	٤٠

-(١٠٣)

منزلة الخشوع	٤١
منزلة الإخبات	٤١
منزلة الزهد	٤٢
منزلة الورع	٤٤
منزلة التبتل	٤٤
منزلة الرجاء	٤٥
منزلة الرغبة	٤٥
منزلة الرعاية	٤٦
منزلة المراقبة	٤٦
منزلة تعظيم حرمات الله	٤٦
منزلة الإخلاص	٤٧
منزلة الاستقامة	٤٨
منزلة التوكل	٤٩
منزلة الثقة بالله	٥١
منزلة التسليم	٥١
منزلة الصبر	٥٢
منزلة الرضا	٥٥
منزلة الشكر	٦٠
منزلة الحياء	٦٢

(١٠٤)-

منزلة الصدق	٦٣
منزلة الإيثار	٦٥
منزلة الخُلُق	٦٨
منزلة التواضع	٧٢
منزلة الذكر	٧٣
منزلة العلم	٧٤
منزلة الحكمة	٧٥
منزلة الفراسة	٧٦
منزلة التعظيم	٧٨
منزلة السكينة	٧٩
منزلة الطمأنينة	٨٢
منزلة المحبة	٨٣
منزلة السرور	٨٦
منزلة الغربة	٨٧
منزلة التمكين	٨٩
منزلة المعاينة	٩٠
منزلة الحياة	٩٦
منزلة الانفصال	١٠٢
فهرس الموضوعات	١٠٣

(١٠٥)-